

رَجَاءُ الْفَيْدَةِ

رَحَالُ الْفَنَاءِ

علي الطنطاوي

طبعة جديدة ، مُنقَّحة ومَزِيَّدة

دار المنارة
جدة

الطبعة الثامنة
١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م

حقوق الطبع محفوظة

دار للنسابة

للنشر والتوزيع

جدة : ٢١٤٣١ ، ص . ب . : ١٢٥٠ .

هاتف : ٦٦٧٥٨٦٤ - ٦٦٠٣٦٥٢ - فاكس : ٦٦٠٣٢٣٨

بَيْنَ يَدَيِ الطَّبْعَةِ الثَّامِنَةِ

بِسْمِ اللَّهِ وَالحمد لله أقدم هذه الكلمة بين يدي
الطبعة الثامنة من كتاب (رجال من التاريخ) أشكر الله
على ما أسأل أن ينفع بها وأستحرم ثوابها،
ثم أشكر لدار المنارة التي تولتها
مكة: صفر ١٤١٠

علي الطنطاوي

بسم الله والحمد لله أقدم هذه الكلمة بين يدي الطبعة الثامنة من كتاب
(رجال من التاريخ) أشكر الله عليها وأسأله أن ينفع بها وألا يحرمني ثوابها،
ثم الشكر لدار المنارة التي تولتها.
مكة: صفر ١٤١٠

علي الطنطاوي

بَيِّنَاتِي (الطبعة السابعة)

كلُّ ما في هذا الكتاب بقية من أحاديث كانت تذاع لي من دمشق قبل أكثر من خمس وثلاثين سنة. استمرَّت إذاعتها أعواماً، تعبت في إعدادها كثيراً، واستمتع بها واستفاد منها (من السامعين) كثير، بلغت ثلاثمئة حديث أو تزيد، ضاعت فيما ضاع مما كتبت، وأرجو ألا يضيع عند الله ثوابها، إن كتب الله لي بكرمه الثواب عليها.

كنت إذا أردت الحديث عن رجل، قرأت كل ما تصل إليه يدي مما كتب عنه، وقُيِّدت في ورقة ما أختار من أخباره، وربما بلغ ما أقرؤه عنه عشرات أو مئات من الصفحات، ثم أعمد إلى خبر منها، فأجعله مدخلاً إليها، وأحاول ما استطعت أن اتبع فيها أسلوباً ينأى بي عن جفاف السرد التاريخي، ويخلص من تخيل الكاتب في القصة الأدبية، لعلِّي أصل إلى الجمع بين صدق التاريخ وجمال الأدب، فأوفق حيناً، ويجانبني حيناً التوفيق.

وكنت كلما أعددت (حديثاً) عن رجل من الرجال، فتح لي الباب للكلام على أقرانه وأمثاله، فحديث عن صلاح الدين يجر إلى آخر عن تور الدين، وحديث عن أبي حنيفة يدفعني إلى آخر عن مالك، ولو أنني استمررت أحدث عن أبطالنا وعظمائنا خمسين سنة، في كل أسبوع حديثاً، وجاء مئة مثلي يصنعون مثل صناعي، لما نفذت أحاديث هؤلاء العظماء الأبطال، وأنا لست من المولعين بجمع الكتب، ورصّها في الخزائن لأزهي بها، وأفخر بكثرتها، ولا أقتني إلا الكتاب الذي أحتاج إليه، أرجو النفع به، أو المتعة بقراءته، وقد اجتمع لي (على هذا) في مكتبتي الصغيرة، هنا وفي دمشق، أكثر من تسعين مجلدة في تراجم الرجال والنساء، فلو أن في كل واحدة منها سيرة مئة منهم، لكان من ذلك تسعة آلاف من سِيرِ العظماء.

ومن نظر في مقدمة الطبعة الثانية من كتابي (قصص من التاريخ) لقرأ فيها هذه الفقرة التي أعيد نشرها هنا بعد كتابتها بنحو نصف قرن، قلت فيها:

(إن في كتب التاريخ والأدب، والمحاضرات والرحلات، آلفاً من سير العظماء ليست في كتب التراجم على كثرتها.

من ذلك أنني كنت أتسلى مرة بالنظر في (رحلة ابن بطوطة) فاستخلصت منها تراجم كثيرين، منهم السلطان المسلم العادل طرمشيرين من حَفدة جنكيز خان المسلمين، وكان يحكم مملكة واسعة المدى، مترامية الأطراف، كثيرة الجيوش، واسعة الخيرات. فهل سمعتم باسم طرمشيرين؟ وهل سمعتم بمن حكم روسية من ملوك المسلمين، وكان لهم فيها حكومة عظيمة القدر، عاشت حيناً من الدهر، كانت تسمى دولة البلغار، وكانت عاصمتها بقرب «ستالينغراد»؟.

ولن أسرد عليكم كل ما قلت فيها، فارجعوا إن شئتم إليه، تَطَّلَعُوا عليه.

ولمَّا كتب لي أن أزور القارة الهندية، وأندونيسيا، رأيت للمسلمين فيها تاريخاً ما كنت أعرفه، ولا كان ممَّا يدرس في المدارس، ولا ممَّا يوجد في الكتب التي اطلعنا عليها. تاريخاً ينتظر الباحث المخلص الذي يحيط به، والقلم البليغ الذي يكتبه، وفي هذا الكتاب مثال صغير عليه في سيرة: أورنك زيب (ص ٢٢٧)، والملك الصالح (٢٣٩)، وسلطانة الهند (٢٥٥)، ومن نظر في كتابي عن أندونيسيا، وقرأ قصة دخول الإسلام إليها، لرأى فيها شاهداً آخر على ما أقول.

* * *

والعجب ممن يزعم أنَّ الإسلام إنما انتشر بالسيف، هل كان مع الرسول ﷺ في مكة سيف؟ والمجتمع الإسلامي الأول، الذي كان فيه مع محمد أبو بكر وعلي وخديجة وسلمان وصهيب وبلال، وآخرون ممن شرفهم الله بالسبق إلى الإسلام، هل كان معهم سيف؟!

هل تنبَّهتُم إلى أسمائهم؟ هل أدركتم الرمز الذي تشير إليه؟ لقد مُثِّل فيه الرجال بأبي بكر، والنساء بخديجة، والأولاد بعلي، وهل المجتمعات إلَّا رجال

ونساء وأولاد؟ ومُثل فيه العرب بهؤلاء، والفرس بسلمان، والحبشة ببلال، والروم بصهيب، وهؤلاء هم قَطَّان هذه البقعة من الأرض.

الإسلام انتشر بالسيف! إنَّها دعوى بلا دليل، والدليل القائم، عليها لا معها، انشروا مصوِّر العالم الإسلامي وانظروا، هل البلاد التي دخل إليها الإسلام عن طريق الفتح أكبر وأوسع وأكثر سكاناً، أم البلاد التي دخلها بعد انقضاء عهد الفتوح، وانطواء راياته، ولا يزال يدخل إلى اليوم بلاداً جديدة؟

هل وصلت الفتوح إلى أندونيسيا وماليزيا وأواسط إفريقيا؟ وهل بلغت كوريا واليابان، أم انتشر فيها الإسلام وحده؟

وهل أكره الفاتحون الأولون أحداً على الإسلام؟ لقد عرف التاريخ قواداً فاتحين، كالإسكندر، وجنكيز، وبونابرت، وهتلر، وأمثالٍ لهم كثير، فأين الآن ما فتحوه؟

لقد كان زيتاً صبيته على ماء، وهززه هزاً حتى حسبته قد مازجه وخالطه وصار معه سائلاً واحداً، فلماً بطل الهز عاد الزيت زيتاً والماء ماء. بقي في البلاد غالبون ومغلوبون، مفتوحة بلادهم وفاتحون.

أمَّا الفتح الإسلامي فقد كان كاختلاط الماء بالخل، صُبَّ ماءٌ على الخل، ثم انظر هل تقدر أن تفصل الخل عن الماء؟ هذه الشام ومصر والعراق والبلاد التي بلغها الفتح هل تميّز فيها الآن أبناء الجند الفاتحين، من أبناء البلاد الأولين؟

لقد جعلهم الإسلام أمة واحدة، ليست أمة العرب، ولا أمة الفرس، ولا أمة الترك، ولكن أمة محمد ﷺ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

الإسلام انتشر بالسيف! إنَّها مقالة جاهل بالطبع البشري، على قائلها أن يخجل منها وأن يتوارى بها.

إنَّ الإسلام عقيدة، والعقيدة مزيج من عقل وعاطفة، فمن سمع أنَّ العاطفة تَجِيء بالقوة والبطش؟ إذا فَرَكْتَكَ امرأتك (أي كرهتك) فهل تحمل العصا فتقول لها إما أن تحبيني وإما أن أكسر أضلاعك؟ وهل تحسبها تحبك بالإكراه؟ ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾. لقد عرف التاريخ حكماً طغاة جبارين، يُكرهون الناس حتى يكونوا لهم تابعين طائعين، يخضعون أجسادهم وجوارحهم حتى يعملوا لهم ما يريدون،

ولكن هل يستطيعون إخضاع قلوبهم، حتى تمتلئ بحبهم؟ وعقولهم حتى ترى الحق معهم؟

أقيمت في أندونيسيا شهراً، نهاري فيه مع العلماء والأدباء، وسهري في المحاضرات والندوات، زرت الجامعات والمكتبات، ووقفت في آخر جزيرة «جاوه» على قبر الرجل الذي حمل الإسلام إلى هذه البلاد واسمه إبراهيم، وهم يعظمونه فيقولون: (سلطان إبراهيم).

فمن إبراهيم هذا؟ ما وجدت ممن لقيت من الناس، ولا فيما قرأت من الكتب من عرف من هو ولا من أين جاء. فكيف إذن دخلت هذه البلاد في الإسلام، حتى صار فيها اليوم دولة سكانها اليوم مئة وخمسون مليوناً، كلهم مسلم بالقيّد الرسمي، مسلم بالإحصاء الجغرافي، نسأل الله أن يخلصها من مكر الملحدين، والبانجاسيلا (المبادئ الخمسة) التي جاؤوا بها بدلاً من الأركان الخمسة للدين، ومن كيد المكفرين المنفرين المنصرين الذين يدعون افتراء بالمبشرين.

إنّ في تاريخ الإسلام في أندونيسيا رجالاً أبطالاً، ما تعرفونهم ولا سمعتم بهم.

إن عنوان (رجال من التاريخ) يمكن أن يجتمع تحته كتاب من خمسمئة مجلد. نعم وأكثر من ذلك، لا أبالغ، ولا ألقى القول جزافاً، صدّقوني.

إن تاريخنا أعظم تاريخ، ولكننا أمة تجهل تاريخها. هذا التاريخ الذي ليس لأمة مثله، هذا التاريخ الذي يفيض بالحب والنبل والتضحية والبطولة والإيمان.

ولست أعني التاريخ السياسي وحده، بل التاريخ العلمي أولاً. تاريخ القوم الذين باعوا نفوسهم مجاهدين في ميدان الطروس، بأسنة الأقلام، وهجروا لذلك لذائذهم، ونسوا حاجات بطونهم وغرائزهم، وأطرحوا رغبات الغنى والجاه، وكل ما يتزاحم عليه الناس، واستهانوا في سبيله بكل صعب، حتى إنهم كانوا يرحلون الإبل أربعين ليلة من مشرق الأرض من خراسان، أو من غربها في الأندلس، إلى مكة أو المدينة أو الشام أو مصر أو بغداد، في طلب مسألة مفردة، أو حديث واحد. أحرقوا أدمغتهم فجعلوها مشاعل للقرون الآتية، فسارت البشرية على ضوئها. كانوا في عصر الحكم فيه حكم مطلق، وكانت حياة الناس معلّقة بكلمة ينطق بها الحاكم، فاستطاعوا أن يجعلوا لأنفسهم بإيمانهم وعدالتهم وأخلاقهم حصانة دونها

الحصانة التي يعتز بها القضاة ويكفلها لهم القانون الآن^(١)، تاريخ المجاهدين الذين خرجوا من بيوتهم، وفارقوا أهليهم وخلفوا دنياهم وراء ظهرانيهم، أداء لحق الله وإعلاء لكلمة الله، ما كانوا عادين ولا باغين، ما كانت حربهم حرباً هجومية ولا حرباً دفاعية كما نفهم اليوم من كلمة الدفاع، فما كانت دفاعاً عن أرض ولا احتل الفرس أو الروم المدينة أو مكة، فنهضنا^(٢) ندافع عنها، إنما هي حرب دفاع عن العقيدة.

أرايتم الجائعين في إفريقية، الذين تسمعون أنباءهم في الإذاعات، وتقرؤونها في الجرائد... إذا جاء من يحمل إليهم الماء والغذاء والدواء، وما يدفع عنهم البلاء، فوقف ظالم في طريقه يمنعه أن يوصل ذلك إليهم، يريد أن يميتهم في دورهم حتى تصير هي قبورهم.

ألا تقاتله؟

هذا ما صنع المسلمون المجاهدون. نزل عليهم المصباح الهادي في (جِراء) والدنيا تتخبط في الظلماء، فحملناه لينير لهم طريقهم، فاعترضنا من يمنعا.

قلنا: تعال فاحمل النور معنا، تكن منّا لك ما لنا وعليك ما علينا. قال: لا. قلنا: قدعنا نمرًا ونحن نحملك من عدوك، ونرد عنك من يعتدي عليك، ونبذل نحن أرواحنا دونك، لا نريد منك إلاّ أجرة يسيرة من مالك، مقابل ما نبذل من دمائنا، قال: لا. فما الذي نصنعه معه إلاّ أن نقاتله؟ هذا هو الجهاد.

إنّ تاريخنا السياسي أنظف من كل ما يماثله من تواريخ الأمم، ولا يخلو (على ذلك) من أمور لا يحسن أن ننشئ عليها أولادنا، أمور تقضيها طبيعة البشر الذين يخطئون ويصيبون، ويحسنون ويسئون، ليسوا ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

حتى المجتمع الذي كان أسمى مجتمع بشري، الذي كان (ظاهرة) لم تسبق

(١) فقرة من مقدمة (قصص من التاريخ).

(٢) نهض أي نهض.

ولم تتكرر، مجتمع الصحابة لم يَخُلْ من منازعات ومصادمات لم يتعمدها الصحابة، ولكن من دسّ الدسائس بينهم، وفرّق بالكذب جمعهم. فلماذا ندرسها لأولادنا؟ لماذا، وقد كره علماؤنا الخوض فيها؟ وكيف نسمح لمدرس غرّ قد يكون قليل الدين، أن يقيم من نفسه حكماً بين عائشة أم المؤمنين وعلي أمير المؤمنين؟

تقولون: ما الحل؟ لقد بَصُرْتُ بالحل أيام الوحدة لما كنت قاضي دمشق، ورئيس عمدة المدارس الشرعية التي تديرها الأوقاف^(١)، وكتبت بذلك إلى الوزير^(٢)، فكلفني وضع مناهج جديدة لهذه المدارس، فوضعتها وأحدثت فيها أموراً، كان منها: أنني رفعت من المنهج التاريخ السياسي ووضعت مكانه مادة سميتها (أعلام الإسلام). ندرس فيها مناقب العظماء، ونكشف عن مواطن العظمة فيهم، وأمضى الوزير ما اقترحت، وأحسب أنه لا يزال باقياً إلى الآن.

أنا مدمن القراءة، يومي كله إلا ساعات العمل، أمضيه في المطالعة ومحادثة الكتب، من يوم أتقنت القراءة، قبل سبعين سنة، وأنا أقرأ. وأكثر ما أولعت به التاريخ. وذلك بعد إقامة لساني بتعلم العربية، وضمان آخرتي (وما تُضمّن إلا برحمة منه) بمعرفة الشرع. فأنا أقرأ كل ما أصل إليه من تواريخ العرب وغيرهم، ومن المذكرات والرحلات والمشاهدات، ولقد كتبت كتاب (قصص من التاريخ) وما ضمّ كل ما كتبت، و (رجال من التاريخ) و (حكايات من التاريخ) التي حسب قوم أنني كتبتها للأطفال فعّدوها من أدب الأطفال، مع أنني لم أكتبها لهم، وأسلوبها يعلو (كثيراً) عن أفهامهم.

بدأت بهذه الأنواع كلّها من سنة ١٩٣٠ من حين كنت (محرراً) في جريدة (فتى العرب)، بل لقد بدأت، في الفتح والزهاء سنة ١٣٤٧ هـ، وهذا الكتاب ثمرة باقية، مما فقد.

وهذه هي الطبعة السابعة (الشرعية) لهذا الكتاب. أما الطبعات المسروقة فلا أحصيها. ومن اقترفها فسيجد عند الله حسابها.

وقد وقفت أنا على طبعها، وعدّلت فيها، وزدت عليها شيئاً لم ينشر من قبل

(١) أي رئيس مجلسها الأعلى.

(٢) عبد الحميد السراج.

في مجلة ولا صحيفة ولا كتاب، بل لم يدع من الإذاعة، لأنه لم يكمل وقد آثرت أن أنشره ناقصاً قبل أن يضيع.

وليس لأحد في هذا الكتاب ولا في غيره من كتيبي حق من حقوق الطبع، ومن ادعى ذلك كان كاذباً.

وكل طبعة آذن بها ويمر عليها الوقت الذي تنفذ فيه عادة وعرفاً يسقط حق المأذون له فيها. أقول هذا لِمَا فشا من عدوان بعض الناشرين على المؤلفين، لا يردعهم عنه الدين، ولا الخلق المتين، حتى صار همهم دنياهم لا يفكرون إلا فيها. ولا يحرصون إلا عليها، يلبسون للمؤلف عندما يلقونه جلد الحمل الوديع، فإذا صار الكتاب في أيديهم، خلعوه فبدا من تحته شعر الذئب الكاسر، وهذه تذكرة لمن شاء أن يذكر، ما سميت فيها أحداً ولا أشرت إلى أحد.

أما أنا فإن خسرت بهذا العدوان بعض المال فقد أبقي الله لي منه ما يكفي، وسأخذ حقي يوم أكون محتاجاً إليه، لا من ريلات المعتدي ودولاراته، بل من حسناته التي هي وحدها الطريق يومئذ إلى نجاته.

نسأل الله أن يحيي قلوبنا، حتى نراقب ربنا، ونذكر آخرتنا، وأن يهدينا جميعاً: الناشرين والمؤلفين.

أما (دار المنارة) التي تنشر هذا الكتاب اليوم، فهي مني ليست غريبة عني، وصاحبها دين أمين على حين قلت في الناس الأمانة، وأنا لا أزكيه على الله ولكن أزكيه للناس. وأنا أعلم أن هذه التزكية شهادة أنا مسؤول عنها.

أما جودة الطبع ونفاسة الورق وحسن الإخراج فإنك تراه أمامك.

وبعد: فما أردتها مقدمة للكتاب، ولكن تعريفاً بهذه الطبعة استرسل فيه القلم، وانبسط المجال فطال المقال.

مكة المكرمة رجب ١٤٠٥

علي الططاوي

سَيِّدُ رَجَالِ التَّارِيخِ

من صور الهجرة

نحن الآن في مكة والحرب قائمة بين التوحيد والشرك، بين الإصلاح والجمود، بين محمد وقريش، وبذلت قريش قوتها، وبذلت قريش مالها، وقدّمت دنياها كلها، في شيء واحد: هو أن تمنع هذا الخير عن الدنيا.

قال محمد: «افتحوا لي الطريق لأخرج إلى الأرض الفضاء، فأنصر الضعيف، وأنجد المظلوم، وأعيد للبشرية كرامتها، وللعقل سلطانه»، قالوا: لا

قال: «افسحوا لرسالتي لتنتلق في الزمان، فإنّها ليست لبلد واحد، ولا ليوم واحد»، قالوا: لا! ولكن تعال نملكك إن شئت علينا، ونمنحك أموالنا ونجعلك سيّد هذا البلد كله. وسخر التاريخ من قريش... يدعوهم محمد ليعطيهم سيادة الأرض، وزعامة الدنيا، ويضع في أيديهم مفاتيح الكنوز: كنوز المال، وكنوز العلم، ويمنحهم ما يملك كسرى وقيصر، وهم يدعونه ليعطوه إمارة هذه القرية، النائمة بين جبليين، وراء رمال الصحراء.

وانطلقوا يؤذونه، ويتوعدونه، لعلّ التهيب يفعل فيه ما لم يفعل الترغيب.

رموا في طريقه الشوك وهو ماش، وألقوا عليه أحشاء الناقة وهو ساجد، ورموه في الطائف بالحجارة وأسالوا دمه، وهزئوا به، وسلطوا عليه سفهاءهم. فلم يثر هذا كله غضبه ولكن أثار إشفاقه، إشفاق الكبير على الأطفال

المؤذنين، والعاقل على المجانين، وكان جوابه: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون».

ولم يصرفه عن وجهته شيء، إلا إن صرف القمر عن مسيرة في قبة الفلك زرّ وردة تلقيه عليه، أو حجر ترميه به.

وآذوا المسلمين الأولين ليفتنوهم عن دينهم، وعذبوهم، وكانوا يبطحون المسلم عارياً على الرمال الملتهبة التي يشوى عليها اللحم، ويضعون عليه الصخرة الهائلة، ويلوحون له بالماء، ويقولون: اكفر برب محمد حتى نسقيك وننجيك. فيقول: أحداً! أحداً!

وتشغله لذّة المناجاة، عن لذّة العذاب، ونشوة الأمل بالجنة، عن شقوة الألم في الدنيا.

احتملوا في سبيل الله كل شيء، الضرب، والجرح، والحرق، والجوع، والسهر، واستحلّوا في سبيل الله المرائر، واستحبوا أبغض المكاره إلى النفوس إن كان فيها رضا الله.

ودعاهم الرسول إلى ما هو أشد من هذا كله، إلى فراق الوطن، وترك الأهل، وأن يمشوا فراراً بدينهم إلى بلاد ليسوا منها، وليست منهم، ولا لسانها لسانهم، ولا دينها دينهم، إلى الحبشة يجاورون فيها النصارى، ونصارى الحبشة أولى بهم من مشركي العرب، ولتجدن أقرب الناس مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى^(١)، فخرجوا من منازلهم وهجروا أهليهم، ومشوا إلى الحبشة فلحقهم أذى قريش إلى الحبشة.

وأوغلت قريش في كفرها وصدّها وعنادها، ولكن هل تقدر قريش أن تطفئ نور الله؟

إنّ البخار الذي من طبعه الانطلاق إلى العلاء لا يحصر في زجاجة،

(١) اقرأ الآية كاملة واعرف سبب نزولها تعرف من هم النصارى المقصودون.

وإن حصرتة وجد منفذاً أو مزق الإناء، وكذلك صنع الإسلام.

وهاجر المسلمون مرةً ثانية ولكنها هجرة إلى ديار عربية، إلى قرية قدّر لها أن تبقى الدهر كله خاملة ضائعة وراء الرمال، حتى تتشرف بمحمد، فإذا هي أم المدائن، وعاصمة العواصم، منها تنبع عيون الخير والهدى لتسيح في الأرض، فتسقيها وتعمها بالخيرات، وإليها تنصب أنهار الملك والغنى والسلطان من كل مكان.

هاجر المسلمون جميعاً ولم يبق في مكة إلا النبي ورجلان اثنان، مرافقه في السفر، ووكيله في مكة. رجلان كانا أول من أسلم. وآخر من هاجر: سيد الكهول أبو بكر وسيد الشباب عليّ.

تأخر محمد كما يتأخر الربان الشريف على ظهر الباخرة الميثوس منها فلا ينزل حتى ينزل الركاب جميعاً.

وكما يتأخر الراعي الأمين، عند المفازة فلا يجوز حتى يجوز القطيع كله.

تأخر يحمي أتباعه، ويستقبل بصدرة الخطر.

وجاء الخطر على أشد صورته وأشكاله.

اتفق زعماء قريش على ارتكاب أكبر جريمة في تاريخ الجنس البشري.

جريمة لو تمت، لما كانت في التاريخ دمشق ولا بغداد ولا القاهرة ولا قرطبة، ولا كانت للراشدين دولة، ولا للأمويين، ولا للعباسيين، ولا فتح بنو عثمان القسطنطينية، ولا بني الأموي، ولا النظامية ولا الحمراء، ولما قامت الحضارة التي قبست منها أوربا حضارتها: من الشام في الحروب الصليبية، ومن الأندلس بعد ذلك، ولبدل التاريخ طريقه، ولكننا اليوم على حال لا يعلمها إلا الله.

وهنا تتجلى رجولة محمد وشجاعته، وثبات أعصابه، وهنا يظهر نصر الله لأوليائه - حين فتح محمد الباب، وخرج يشق صفوفهم، يقتحم الجموع، التي جاءت تطلب دمه، أرادوا قتله وأراد الله حياته، فتم ما أراد الله، وروعتهم المفاجأة وأعمت أبصارهم، وما عادوا إلى أنفسهم حتى كان محمد قد مضى، وصحوا كأنّ حلماء مرّ بهم، وشقوا الباب ونظروا ليتوثقوا، فرأوا فراش محمد وفيه رجل نائم، ففركوا عيونهم وتنفسوا الصعداء.

* * *

وأدركت قريش الحقيقة بعد ما مضى محمد، وعمّ الصريخ مكة وضواحيها، وخرج القرشيون فرساناً ومشاة يركضون خيولهم، ويعدون إلى كل ناحية يتلفتون مذعورين.

ما لهم؟ ما لهم وهم حماة الديار، وفرسان المعارك، قد أطار الفزع ألبابهم وصدع الذعر قلوبهم؟ ما لكم يا ناس؟ قالوا: خرج محمد!

وماذا تطلبون منه؟ أخذ أموالكم؟

قالوا: معاذ الله إنّه الأمين المأمون أداها عن آخرها؟

أجرم جريمة فأنتم تطلبونه بها؟

قالوا: حاشا لله، إنّه أحسن الناس خلقاً، وأطهرهم يداً.

ماذا تريدون منه؟ قالوا: إنّه سيجند الدنيا كلها، لمحاربة أربابنا وأصنامنا وجهلنا وكبريائنا، سيضطرنا إلى هدم الحجارة الجامدة، وعبادة الله الواحد. واتباع سبيل الهدى، والخير والسداد.

أهذا الذي تنقمون من محمد؟

وسخر التاريخ من قريش مرة ثانية!

وعادت قريش بخزيها، وهاجت الجزيرة ضدّ محمد، ووضعت الجوائز، (مئة ناقة) لمن يأتي بمحمد حياً أو ميتاً.

وبعد أن فارق محمد وصاحبه الغار لحقهم فارس^(١) وخاف أبو بكر وقال: والله ما على نفسي خفت، ولكن عليك، فأجاب محمد بالكلمة التي تجمع وحدها معجزات الإيمان، مهما تعددت صورها، من الشجاعة والتضحية والثبات، والإيثار، قال: لا تحزن، إنَّ الله معنا.

إنَّ الله مع من يكون مع الله، إنَّ الله ينصر من ينصره، فلا يحزن من كان الله معه.

إنَّ جبهة معها الله، لا تنكسر ولو كان ضدها الوجود كله!

* * *

ومشى الموكب إلى الدنيا الواسعة. موكب صغير، ولكنه أجلُّ من أعظم موكب أحست بوطئته هذه الكرة التي نمشي على ظهرها، ولم تعرف موكباً أنبل منه قصداً، وأبعد غاية، وأخلص نية، وأعمق في الأرض أثراً.

موكب صغير يمشي في الصحراء الساكنة، لا رايات ولا أعلام، ولا أبواق ولا طبول، ولا تقوم له الجند على الصفين، ولا يصفق له الناس من النوافذ، ولكن تصفق الرمال فرحاً بالذي سيضفي عليها ثوب الخصب والنماء، وتزهى الجبال طرباً، بالذي سيقم عليها أعلام النصر والعز، وتبرز من بطن الغيب جحافل القواد والعلماء والأدباء الذين أنبتهم مسير محمد في هذه الصحارى.

حتى أشرف على المدينة.

وأقبلت جموع كالجموع التي خلفوها في مكة.

ولكن تلك كانت للشر، وهذه للخير. وتلك تنادي بالموت لمحمد، وهذه تنادي بالحياة لرسول الله.

وكانت هذه نقطة التحول في التاريخ الإسلامي.

(١) هو سراقه وقد تعاورت هذه الحادثة أقلام، وأخرجت فيها (أفلام) وكتب أول من تنبه إليها، وكتبت فيها قصة نشرت في العدد الممتازة من (الرسالة) الصادر يوم ١٢ المحرم سنة ١٣٥٤ هـ.

كل ما قبلها هزائم، وما بعدها إثمًا هو نصر إثر نصر. ولذلك جعلناها
ابتداءً تاريخنا.

* * *

ها نحن أولاء الآن على أبواب المدينة، وقد خرجت كلها تستقبل
محمدًا، ولو استطاعت من الحب لفرشت له الطريق بقطع أكبادها، حتى
يمشي على قلوبها، وكانت تنشد نشيد الاستقبال:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وها هم الناس يسألون: أيهم هو؟ أيهم محمد؟

لا يعرفونه، لأنه لم يكن ملكًا، ولا يلبس الحرير، ولا تلوح عليه
شارات الملك، ولا يتألق على جبينه التاج، بل كان عبدًا لله متواضعًا، يلبس
ما يلبس الناس، ويأكل ما يأكلون، ويجوع إن جاعوا، ويشبع إن شبعوا،
ولقد كان في أصحابه الأغنياء الموسرون، ولكن محمدًا أحب أن يعيش
فقيرًا وأن يموت فقيرًا.

وحسبوا أبا بكر هو النبي، فكانوا يسلمون عليه، وهو يشير إلى
الرسول يقول لهم بيده: ها هوذا محمد. وأقبلوا يدعونه لينزل فيهم
يتسابقون على هذا الشرف الخالد.

فماذا صنع؟ انظروا إلى لطفه ولباقة، أنه لا يريد أن يؤذي أحدًا
بالرفض، فقال: اتركوا الناقة فإنها مأمورة، ومشت الناقة حتى بركت عند
دار أبي أيوب الأنصاري.

أبو أيوب، الذي كتب الله له أن يحضر بعدُ حرب القسطنطينية وأن
يوغل في الهجوم يريد أن يموت في أبعد مكان، فمات ودفن على ضفاف
البوسفور، وبقي قبره يدعو المسلمين إلى فتحها قرونًا طوالاً، حتى كتب
الله هذا الثواب للسلطان محمد الفاتح.

نحن الآن مع محمد ﷺ في المدينة. أنه يؤسس الدولة الجديدة،
فيم ترونه يبدأ؟ بمهرجان فخم يبايعونه فيه بالملك؟ أنه لا يريد الملك!
يبنى ثكنة باحتفال عظيم ويجيش جيشاً؟ إنه لا يتغنى العلو في الأرض!
يفرض الضرائب؟ لا، ولكن يبدأ بعمارة المسجد.

إنها ظاهرة عظيمة يحسن أن يقف القارئ عندها. يبدأ بالمسجد،
كما بدىء الوحي بآية (القراءة) و(التعليم) بالقلم.

بدأ بالمسجد، والمسجد في الإسلام، هو المعبد (رمز) الإيمان،
وهو البرلمان (رمز) العدل، وهو المدرسة (رمز) العلم.

ولم يغصبه بل شراه بالمال وذلك (رمز) الإنصاف.

ولم يأمر ببنائه ويقعد، بل شارك أصحابه العمل، وحمل الحجارة
بيده، وهذا (رمز) الديمقراطية. وبناء من اللبن والطين، بلا زخارف ولا
نقوش وهذا (رمز) البساطة^(١).

فكان من هذه (الرموز) الإيمان والعدل والعلم والإنصاف
والديموقراطية والبساطة مجموعة شعائر الإسلام.

(١) البسيط في اللغة الواسع المبسوط ولكنني أردت معناها الشائع.

سَيِّدُ رَجَالِ التَّارِيخِ

يوم الهجرة:

اليوم تغلق الدواوين^(١) أبوابها، وتسرح المدارس طلابها، وترفع الأعلام في النهار، وتوقد السرج في الليل، احتفاءً بذكرى الهجرة، ثم يمر اليوم، كما مرَّ الأمس، ويمر الغد، لا يسأل ولد أباه، ما معنى الهجرة؟ وإلام يشير هذا اليوم؟ ولا يحدث أب ولده وأهله حديث الهجرة، لأنَّ أكثر الآباء لا يعرفون من سيرة نبيهم وهاديهم، إلَّا القليل الغامض، الذي لا يفيد علماً، ولا ينفي جهلاً، ولا يأتي منه شيء.

مع أنَّ على كل رب أسرة، أن يكون في بيته كتاب جامع من كتب السيرة، وأن يقرأ فيه دائماً، وأن يتلو منه على أهله وأولاده وأن يجعل لذلك ساعة كل يوم، لينشؤوا على معرفة سيرة الرسول الأعظم ﷺ، فإنَّ سيرته النبوع الصافي لطالب الفقه، والدليل الهادي لباغي^(٢) الصلاح، والمثل الأعلى للأسلوب البليغ، والدستور الشامل لكل شُعب الخير.

وأنا من ثلاثين سنة أكتب وأخطب في الهجرة^(٣) ما انقطعت عن ذلك سنة، ولا أزال مع ذلك، كلما فكرت فيها بدت لي في أخبارها، ملاحظات

(١) في بعض البلدان.

(٢) أي قاصد.

(٣) خطبت أول خطبة فيها سنة ١٣٤٥ هـ في الاحتفال السنوي للمدرسة الأمنية فصارت الآن ستين بدلاً من الثلاثين، نسأل الله حسن الخاتمة.

أوفي اغتيال الناس، أوفي الدس عليهم . أي أنهم يهدرون أوقاتهم فيما لا نفع لهم فيه، بل فيه الضرر عليهم، فجعل يجمعهم على كتاب يقرؤونه أو درس يسمعون، ثم اخترع طريقة جديدة ما أظن أن أحداً سبقه إليها، وهي أنه كان يعتمد إلى الطبقة المتميزة من الموظفين ومن المتعلمين في البلد الذي ولي قضاءه، فإذا كانت جلسة اختار للجلسة التي بعدها موضوعاً من الموضوعات العلمية أو الفكرية أو الاجتماعية، ثم قال لهم: ليعد كل واحد منكم نفسه للكلام في هذا الموضوع في الجلسة المقبلة، ودلهم على المراجع في هذا الموضوع، فمن أراد منهم وقدر رجوع إلى هذه المراجع فدرسها فزاد بها علماً، ومن لم يقدر، أو لم يرد هياً نفسه للكلام فيه، ولقد جربت هذه الطريقة لما عيّنت قاضياً في النبك سنة ١٩٤١ (وسياقي الخبر بالتفصيل) فوجدت فيها خيراً كثيراً.

هذا الرجل واحد من عشرات، بل من مئات من الرجال، كان في حياتهم^(١) وفي أفكارهم درس للناس لو أن تراجم حياتهم دوّنت وكتبت وألفت فيها الرسائل، ولكن خبره ضاع في الدنيا كما ضاع الكثير من أخبار أمثاله من كبار الرجال.

* * *

ومن عرفت من الجنود المجهولين والرجال العاملين الذين لم تصل إليهم أضواء الشهرة فيعرفهم الناس، ولكن الله يعرفهم ويشيهم برحمته ويجزيهم على أعمالهم: معلم الشام الشيخ عيد السفرجلاني، وقد كتبت عنه كثيراً. وكان من أوائل من فتحوا المدارس الأهلية الابتدائية في دمشق، لبث سبعين سنة معلماً، تعلم عنده الولد، وأبوه من قبله، وجده من قبلهما. وقد رأيت في سجلاته أن أبا الجدد قد تعلم عنده. كانت له مدرسة في المناخلية في دمشق، إلى جنب باب الفرّج، وهو أحد الأبواب الباقية لدمشق. وسور دمشق وأبوابها لم تذهب به أحداث الزمان، ولا يزال باقياً إلى الآن، ثم انتقل إلى المدرسة الحقمقية، عند باب الأموي الشمالي الذي يفضي إلى باب الفرديس من أبواب دمشق السبعة، وهذه المدرسة من أجمل المدارس الأثرية في دمشق، وقد عيّنت بها مصلحة الآثار

(١) حيوات جمع حياة.

أخيراً، فجددت بناءها، وأعادت نقوشها، ولكنها أغلقت أبوابها، والعمارة المطلوبة في الإسلام ليست عمارة الأركان والجدران، ولكنها عمارة العلم والإيمان، ولذلك أثبت الله للمشركون أنهم عمروا المسجد الحرام حين قال: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر﴾ ولكنه نفى عنهم عمارة العلم والإيمان، فقال: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾.

هذه المدرسة هي التي تعلمت فيها في نهاية الحرب الأولى، ثم صرت معلماً فيها، وكان أبي من تلاميذها، وصار معلماً فيها، وكل ذلك والشيخ عيد السفرجلاني هو صاحب المدرسة وهو مديرها، وقد كتبت عنه كثيراً فلا أعود الآن إليه، وأذكر أنه لما توفي سنة ١٩٣١ كنت أشتغل في جريدة «الأيام» عند الأستاذ عارف النكدي، فكتبت مقالة عن الشيخ عيد، فقال لي بعض إخواننا هناك: ومن هو الشيخ عيد؟ أنشغل القراء بشيخ كتاب؟.

فثرت عليه وأسمعته ما لا ينتظر سماعه مني، وبينت له أن شيخ الكتاب هذا، وأن معلمي مدارس الحضارة والمدارس الابتدائية، هم الذين يضعون الأساس، ولا يقوم البناء إلا على أساس، مهما كثرت طبقاته وعلت شرفاته، فينبغي أن نطالب معلم الابتدائي بالكثير من العلم ومن الخلق، وأن نعطيه الكثير من المال ومن التقدير.

وكان لشيخنا الشيخ عيد السفرجلاني ولد هو أستاذنا عبد الرحمن السفرجلاني. كان من أقدم المعلمين في دمشق يدرس الرياضيات، ثم صار المدير الثاني (وكيل المدرسة) في مكتب عنبر. وقد اخترع لنا، لما كان مديراً فيه، مكافآت مطبوعة مذهبة مكتوبة بالخط الكوفي والخط الفارسي والثلث، سماها الاستحسان والتقدير والامتياز، وجعلها درجات، ولا تزال عندي طائفة منها، لو أنها وضعت في إطار وعلقت على جدار لكانت لوحة فنية، يريد أن يحفز بها الطلاب إلى الجد وإلى الاجتهاد.

عاش عمراً طويلاً جداً ومات وقد بلغ عمره السابعة والتسعين، لم يبق بينه وبين المئة إلا ثلاث سنوات. رأيته يوماً في مجلس شيخ القضاء في الشام، مصطفى برمدا، الرئيس الأول لمحكمة التمييز (محكمة النقض) وكان يستقبل

الناس صباح الجمعة إلى وقت الصلاة فإذا دنا وقت الصلاة، استعد فذهب وذهبوا إلى المسجد لأدائها، لا كمجلس العقاد يوم الجمعة، وقد حضرته مرة مع أخوي الأستاذ الشيخ مصطفى الزرقا، والأستاذ نهاد القاسم، وزير العدل أيام الوحدة، رحمة الله عليه، فوجدت القوم لا يصلون، ويبقون في هذا المجلس إلى الساعة الثانية، فتركناهم وخرجنا. أقول: إني وجدت الأستاذ عبد الرحمن مرة في مجلس مصطفى بك، وكان في المجلس الأستاذ جميل بك الدهان، الرجل المعمر الذي كان المدير العام للأوقاف، وكان قبل ذلك متصرف حمص دهرًا طويلًا، فجرى ذكر أيام المدرسة فاشتركوا جميعاً في الحديث عنها، فاستأذنت وسألت مصطفى بك: هل كنتم في مدرسة واحدة؟ فقال الأستاذ عبد الرحمن: نعم، فضحك مصطفى بك، وقال: نعم، ولكن كنا نحن التلاميذ، وكان هو الأستاذ، ودخل فجاء بصورة قديمة يبدو فيها مصطفى برمدا وجميل الدهان ولدين صغيرين واقفين مع التلاميذ، والأستاذ عبد الرحمن قاعد على الكرسي مع المعلمين وله شاربان معقوفان.

وكان من تلاميذه شكري بك القوتلي، أي أنه عاش حتى رأى تلاميذه قد بلغوا أعلى المراتب وجاوزوا من أعمارهم الستين سنة. ولما أصدر حسني الزعيم قراراً بإلغاء الأوقاف الذرية، واحتاجوا إلى من يحسب أنصبه المستحقين فيها، وقد يبلغون أحياناً المئات، في وقت طويل يستمر عشرات من السنين، كان أول الحاسبين الذين يقسمونها ويعرفون الفرائض، ويتقنون الحساب الأستاذ عبد الرحمن السفرجلاني، والشيخ جميل الشطي مفتي الحنابلة.

وكانت له أجوبة عجيبة. كنت مرة راكباً في سيارة النقل الجماعي في الشام، وكنت في الصف الأول، والسيارة كبيرة، فيها ستون راكباً. وهي مزدحمة فسمعت ضجة من ورائي فسألت الجابي (الكمساري) ما القصة؟ فضحك وقرب فاه من أذني وقال: والله شيء عجيب، أترى هؤلاء البنات؟ فرأيت ثلاث بنات شابات متبرجات واقفات في ممر السيارة. قلت: نعم. قال: لما صعدن تعرضن لهذا الرجل العجوز، وأسأن إليه بالكلام، فتناولهن بسلسلة من النكات والأجوبة المسكتة، حتى جعلهن هزأة بين الناس، ولا يزال يتكلم ينتقل من مثل

إلى مثل، ومن موعظة إلى موعظة، ومن نكتة إلى نكتة، وكلها تنصب على رؤوس هؤلاء البنات كصب الحميم، ولم يكذ يتم كلامه حتى سحبت إحداهن حبل الجرس، لتقف السيارة. ووقفت ونزلن هاربات منه.

* * *

ولما كنا صغاراً كان شيوخ المعلمين في الشام ثلاثة: الشيخ محي الدين الخاني، وأسرة الخاني منسوبة إلى خان شيخون. وهي أسرة كبيرة ظهر منها علماء أجلاء، ورجال كبار منهم الدكتور حسني سَبَح وصلاح والكواكبي وجميل الخاني، أحد الذين وضعوا المصطلحات العربية الطبية مع إخوانه حمدي الخياط ومرشد خاطر وشوكت الشطي، والثاني الأستاذ عبد الرحمن السفرجلاني، وأسنّ منه وأكبر في القدر يومئذ الأستاذ سعيد مراد.

ولما انتهت الحرب الأولى وأغلقت مدرستنا التي كانت منسوبة بالاسم لجمعية الاتحاد والترقي، وإن لم يكن بين الجمعية وبينها صلة بالفعل، وأغلقت هذه المدرسة، ذهبت - كما عرفت - إلى المدرسة السلطانية، وكنا إذا قلنا المدرسة السلطانية أردنا بها يومئذ المدرسة الثانوية، كان المدير الأول أي المدير العام الأستاذ سعيد مراد، وكان المدير الثاني أي مدير القسم الابتدائي الأستاذ شريف أقبیق، وأسرة أقبیق أسرة دمشقية صغيرة، وأظن أن معنى أقبیق باللغة التركية الشارب الأبيض، ولست متحققاً.

كان للأستاذ سعيد مراد يومئذ هبة في نفوسنا، بل رهبة، لعلو منزلته ولأنه المدير الأول، الذي يأمر وينهي هذه المجموعة الكبيرة من الأساتذة، وهذا الجيش المحشود من الطلاب. وكنت أصنع أحذيتي عند حذاء كبير، ودكانه مواجهة للباب الجنوبي لمسجد بني أمية، الذي يفضي إلى الحرم، أي إلى بيت الصلاة رأساً. وكان صاحب هذه الدكان شيخاً بعمامة من آل الأسطواني.

والمشايخ الذين كانوا يعملون في التجارة والصناعة كثيرون، ربما عدت يوماً إلى الكلام عنهم، يتكسبون بعملهم لئلا تدفعهم الحاجة إلى الخضوع للحكام، أو إلى استجداء احترام العوام، أو إلى مد أيديهم إلى أصحاب الأموال، وهذه سنة

سلفنا من الصحابة والتابعين والأئمة الكبار، يتكسبون أموالهم بعملهم، وما ذلّ العلماء إلا عندما مدوا أيديهم إلى أرباب الحكم، أو أصحاب الأموال.

أعود إلى الموضوع: ذهبت يوماً لأفصل حذاءً جديداً، وكنت تلميذاً في السلطانية الثانية، فرأيت في الدكان ما جدد خطواتي، وثبتني في مكاني فلم أستطع أن أتقدم، وظهر ذلك عليّ، وجذب الأنظار إليّ، فما الذي وجدته؟.

وجدت مديرنا الأستاذ سعيد مراد، وكان أقرب إلى الطول، وكانت له لحية صغيرة شقراء، فاستدعاني واستدنانني، وثبت روعي، وكلمني كلام أب محب، لا كلام أستاذ مرهوب.

ومرت الأيام الطويلة وصرت قاضي دمشق، وكنت يوماً على قوس المحكمة أنظر في قضايا الناس، والقاعة الكبيرة ممتلئة بالمحامين والمتقاضين والشهود والموظفين، وكلهم مستعجل يريد أن ترى قضيته وينصرف، فنظرت من الشباك، فرأيت في ساحة المحكمة رجلاً كبير السن، قائماً على قدميه، قد أحنى الدهر ظهره، فعرفت فيه مديرنا الأستاذ سعيد مراد.

فقلت للإخوان: أنا مضطر لرفع الجلسة عشر دقائق، ونزلت من فوق القوس، وخرجت من القاعة، وهم يحسبون أنني إنما خرجت لحاجة طبيعية عارضة، لا بد منها، ولا يستغني عنها، وأني ذاهب إلى الحمام، فأروني قد ذهبت إلى هذا الشيخ، فقبلت يده وسألته أن يدخل معي لأقضي حاجته، إن كانت له حاجة. فدخل معي فأصعدته القوس إلى جانبي، وقلت للحاضرين: هذا شيخ المعلمين، وهذا أستاذي علمني كما علم آلافاً وآلافاً من أبناء هذه الأمة، أفلا ترون من حقه عليّ وعليكم وعلى البلد أن أستمهلكم لأنظر لما جاء من أجله؟. قالوا: نعم. وظهر الرضا على وجوههم، وبان أن في هذه الأمة خيراً كثيراً. وأن الكرم والنبيل لا يزال في أعماق قلوبها، ولكن ربما غطت عليه المطامع أو هموم الأيام.

ونظرت في حاجته وقضيتها، فسألني: من أنت؟ قلت: أنظر إليّ لعلك تعرفني. فنظر ولكن بصره قد ضعف فلم يتبينني فقلت له: أنا فلان. فذكرني

ودعا لي وترحم على أبي. وأوصلته إلى باب القاعة حتى خرج، ولا يزال منظر دموعه وهي تقطر من لحيته التي كانت يوماً شقراء فصارت بيضاء مثل الثلج. منظرًا لست أنساه وأحمد الله عليه.

ولم تمض إلا أيام حتى جاءني من يخبرني أن أستاذنا سعيد البحرة قد توفي، وأن داره قريبة من المحكمة، وأن الناس على عادة أهل الشام يجتمعون في بيت من بيوت الجيران للاستعداد لتشييع الجنازة، وكذلك كنا. كنا إذا كان فرح، أو كانت مصيبة فالفرح فرح أهل الحارة جميعاً، والمصيبة مصيبتهم جميعاً، يفتحون أبوابهم ويقدمون ما عندهم، مشاركة في الفرح أو مواساة في الألم.

لم أكن أحضر مثل هذه الاجتماعات ولكنه أستاذنا، كان يدرس الفلسفة ولم أقرأ عليه إلا مدة قصيرة جداً، لذلك ذهبت فأجلسوني في صدر القاعة وحققوا بي إكراماً للمنصب لا لشخصي، لأن لمنصب القضاء عند الناس حرمة ليست لغيره من المناصب، وكان الناس يدخلون ويخرجون، فنظرت فإذا بين الداخلين الأستاذ شريف أقبیق، وهو مديرنا الثاني في المدرسة السلطانية، لما كان الأستاذ سعيد مراد مديرنا الأول، فقممت إليه فقبلت يده على عادتنا في تلك الأيام. كان فيها الصغار يقبلون أيدي الكبار، يحترمون مدرسيهم وأولي الفضل فيهم، وعزمت عليه إلا أن يجلس في مكاني وقلت للحاضرين: هذا أستاذي، ومهما علا المرء، أو اغتنى، أو ارتفع قدره، فإنه يبقى أمام أستاذه صغيراً، كما كان من قبل ولداً صغيراً. وكان لذلك أطيب الأثر في نفسه.

* * *

ولست أحصي الآن من قرأت عليه، أو جلست بين يديه، أو استفدت منه فإنهم كثيرون لا يحصون، ولكنها ذكريات، أذكر ما حضرني منها، وما دعت المناسبة إلى ذكره. ومن ذكرته لا أؤرخ هنا لحياته، ولا أتبع أخباره، ولا أجمع آثاره، فلست في مقام المؤرخ، ولكنني في موضع من يتذكر.

وكان في دمشق مجلس الشيوخ، لست أعني مجلس الشيوخ الذي يكون في البرلمانات. فما هذا بمجلس له سلطان، ولا له صفة رسمية، ولكنه مجلس يضم جماعة من أجل شيوخ البلد، ولا يقبل فيه إلا من جاوز الستين من العمر،

فكان فيه جِلَّة العلماء، وكان فيه من كبار الموظفين الإداريين، وكان فيه من الوجهاء الذين لهم في تاريخ البلد ذكر، ولهم في إصلاحه أثر.

أذكر منهم - ولست أحصيهم -: الشيخ عبد القادر المغربي، والأستاذ محمد كرد علي، وفارس الخوري، وبديع المؤيد، ومحمود الصباغ، والرئيس هاشم بك الأتاسي، وجماعة كثيرون لا تحضرني الآن أسماؤهم، ولكن في ذهني الكثير من أخبارهم، ومنهم من سأعود إلى الكلام عنه إن شاء الله كلاماً مفصلاً.

ما كنت عضواً في هذا المجلس، ولكن كنت المراقب الثاني. أما المراقب الأول فهو الأستاذ جودة المارديني، كنت أحضره مستأذنًا منهم لأدوّن ما أسمع فيه من أخبارهم، ومن ذكرياتهم، ومن أخبار البلد التي لا أجدها إلا عندهم، ولكنني وهذا من نقائصي لم أكتب شيئاً من ذلك، بل استودعته ذاكرتي.

وكانت ذاكرة وفية، وكانت قوية، وكانت لا تضع أمانة ائتمنتها عليها، ولا تضعف عن حملها فأضعفتها الأيام، فلم يبق مما حوت إلا القليل. وهذا القليل هو الذي أضعه في هذه الصفحات.

الشيخ أمجد الزهاوي

لما كنا صغاراً كان شيوخنا أحسن الله إليهم، يبعدوننا عن كل ما يفسد ملكتنا الأدبية أو يدخل العجمة والضعف على أساليبنا، لذلك لم أقرأ قصص «ألف ليلة» حتى كبرت وصلب عودي، واشتد ساعدي، فلما قرأتها وجدت شهرزاد «كلما أدركها الصباح سكنت عن الكلام المباح».

فإذا انقضى النهار، ودجا الليل، عادت فوصلت ما كانت قد قطعت، ومشت من حيث وقفت.

وأنا اليوم مثل شهرزاد، مثلها في حديثها ومقالها، لا في حسنها وجمالها.

قطعت الحديث في الحلقة الماضية لما صعد المنبر الشاب العراقي الموصلي، وفارقتكم قبل أن أسميه لكم.

فاعلموا الآن أن اسمه محمد محمود الصواف.

ولقد عرفتني أقيمت في العراق سنين مدرساً فيها، من سنة ١٩٣٦ أنقل ما بين البصرة في أقصى الجنوب، إلى كركوك في الشمال، ولكنني لم ألق الصواف ولم أسمع به. وأنى لي لقاءه أو معرفة اسمه، وقد كان طالباً يمشي مع الآلاف والآلاف من أمثاله، في طريق بعيد عن أضواء الشهرة، ثم تفجرت مناقبه رأساً، فذهب إلى مصر طالباً، ولم يكن في سن الطلاب، بل كان كبيراً، أحسب أنه كان في الثلاثين من عمره، وقد أودع الله صدره من الحماسة نبعا لا يغيض.

وكل امرئ يأتي عليه حين من زمانه تتفجر فيه حماسته ثم تهدأ، كالبركان يثور ثم يخمد، والريح تهب ثم تركد. والصواف بركان ظل أبداً نشطاً عاملاً. لقد بلغ الآن السبعين ولو حاول أن يصبغ لحيته، وأن يستر شيبته، ولا يزال إن كلمك تورد وجهه، وعلا صوته وهدرت كلماته، وظهرت حماسته. وأنا من هذا القبيل ولكن حماستي كانت لهباً طويل اللسان ظاهراً للعيان، فصارت ناراً بطيئة كمثل الفحم الحجري، وربما كانت نار الفحم الحجري أشد حراً، وأطول عمراً، ولكن لا لهب لها. فإن ألفت فيها الأحداث وما أكثر أحداث الدنيا، رشة من البارود الناعم صارت قبلة.

أما أثره في العراق فأرجو أن لا يكون حديثي الذي سأحدث به سبباً في نقص ثوابه من الله الذي عمل له وحده، وما أظن أنه طلب جزاء إلا منه وحده، وأنا إن مدحته فما أمدحه رغبة، وليس عنده شيء أرغب فيه، ولا رهبة وما لديه ما أرهبه أو أخافه منه، لذلك كان مدحي إياه، أو مدحي غيره، لله. كما أن نقدي - إن نقدت أحداً - لله، لا نفع لي أرجوه من الأول، ولا خطر عليّ أخشاه من الثاني.

ولو نظمت ديواناً في مدح إنسان وهو حي، أو ديواناً في رثائه وهو ميت، لما نفعه ذلك ولا ضره، ولعمل مثقال ذرة من الخير وترك مثقال ذرة من الشر أجدي على الإنسان وأرجح في الميزان من ذلك كله.

بل أنا قد رثيته فعلاً لما شاع أنه قتل. أيام حكم عبد الكريم قاسم. وألفوا في قصة قتله رواية لو أخرجت فيلماً لكانت من أخلد المآسي الأدبية. وكان لي يومئذ حديث دائم من إذاعة دمشق فذكرته وعرفت قصة قتله، فلما جئت أقول رحمه الله انعقد لساني، وشرقت بدمعي وغلبني البكاء ونذرت زوجتي لما رأت جزعي إن كان الخبر مكذوباً أن تذبح لله خروفاً، ثم تبين كذب الخبر وذبح الخروف، وأظن أن الصواف - شفاء الله - سيحس فيدفع لي الآن ثمنه! بل لا أريد، قد سامحته، على أن يذكر لي أني وفرت عليه ثمن الخروف.

وكل هذا سيأتي خبره كما ستقرؤون خبر الجرائد اللبنانية التي كانت

تمشي في ركب الناصرية، وترون عناوينها الكبيرة التي روت قصة «ذبح الشيخ الطنطاوي» يوم الانفصال، يوم أقيمت تلك الكلمة التي لم تبق إذاعة عربية لم تعدها، ولم تكررهما. وفي هذه المقالات تفاصيل عن ذبحي لا أدري بأي براعة صحافية استطاعوا الوصول إليها ومعرفتها، وأنا المذبح لم أعلم بها ولم أعرفها.

* * *

كان في العراق كما كان في الشام وفي مصر، وإن كان الذي في مصر أكبر وأكثر، بل كان في كل بلد إسلامي، علماء كبار، تجل أقدارهم، وترتفع في الناس منازلهم، وتقبل أيديهم، ويطلب دعاؤهم، ولكن أكثرهم على طريقة علماء القرن الماضي.

إنهم مشايخ صالحون يحفظون ما يقرؤون، ويفتون الناس ويعلمونهم ما يحفظون، ولكن لم يكن فيهم إلا قليل جداً من الذين يفكرون فيضيفون جديداً إلى القديم الذي تعلموه وحفظوه، كان العلم عندهم أمانة أدوها كاملة، ما نقصوا منها شيئاً، لكن ما زادوا عليها شيئاً، ولا جددوا فيها، ولا بدلوا طرائقها. والكلام على علماء الأمس وعلماء اليوم ليس هذا موضعه، وربما وجدت موضعه فافضت في الكلام فيه.

كان في العلماء قليل جاؤوا بجديد، استعملوا عقولهم ولم يجعلوا عمدتهم ذاكرتهم، كالشيخ محمد عبده الذي سمعت به ولم أدركه، والسيد رشيد رضا، والشيخ مصطفى المراغي، والسيد الخضر الحسين، والشيخ عبد العزيز جاويز، والشيخ محمود شلتوت. ومثلهم كثير في مصر. وليسوا سواء: منهم من غلب ذكاؤه وفكره على علمه واطلاعه كالشيخ محمد عبده، ومنهم من كان علمه أكثر ولكن لم يبلغ بالذكاء، والتفكير هذا المبلغ كالشيخ رشيد رضا. ومنهم من كان عبقرياً كطنطاوي جوهرى، والعبقرية - إن رسمت لها خطأ بيانياً كما يقول الرياضيون، أو استحدثت آلة لتخطيطها وتوضيحها كآلة تخطيط القلب في ضرباته - لرأيت هذا الخط يعلو كثيراً ويهبط كثيراً، حتى أن العبقرية لتدنو أحياناً من الشذوذ فيختلط بها، ولا يكاد يميز عنها.

وكان في العراق الألوسيان: المفسر المعروف والأديب المصنف صاحب «بلوغ الإرب» الذي كان أستاذ الأثري استفاد منه، وروى عنه، ووقف على طبع كتبه.

* * *

كنت يوماً أحدث الشيخ أمجد الزهاوي عن أيامي في كركوك قبل الحرب الثانية فقال لي: أليس عجباً أننا كنا نرى ناراً تخرج من بين الصخور، أو صخوراً إذا أدنيت منها لهباً اشتعلت فلم يخطر على بال واحد منها أن يحفر حولها ليرى مصدرها وسرها.

بل إنهم أهملوا عقولهم حتى اعتقدوا أنها نار مقدسة، وسموها باب كركر. وأعجب منه أن الأمم تتقدم ونحن أحياناً نتأخر. أجدادنا كانوا يحاولون دراسة كل ما حولهم، يبحثون عن القانون الإلهي الذي يسيره، لا يكتفون بالمراقبة والفكر، بل إنهم يعمدون إلى التجربة ليتبينوا صحة ما يرون هل هو صحيح أم هو من خداع العيون، فسبقوا بذلك الناس إلى العلم التجريبي ونحن نكاد نقدر النفط.

فلما جاء من يتخذ الوسائل، ويعد العدة، وينزل في باطن الأرض بأجهزته وآلاته، وصل إلى مصدر هذه النار فاستخرج النفط الذي أغنى البلاد، وأفاد العباد.

هو الذي قاله الشيخ أمجد ينطبق عليه هو. كان كنزاً مخبوءاً فكشفه الصواف. عاش الشيخ أمجد قاضياً في الموصل فما عرفه أحد ولا عرف أحداً، حتى إذا جاء الشيخ الصواف عرف به الناس واستفاد مما عنده من العلم ومن العبقرية ومن النبوغ. لولا حماسة الصواف لما ظهرت هذه العبقرية المخبوءة. ولولا عبقرية الشيخ ما أثمرت حماسة الصواف، ذلك أنها إذا كادت تخبو النار فنفخت فيها اشتعلت، ولكن إن نفخت في رماد بارد لم يظهر لهب النار.

لقد أعدته حماسة الصواف. أفتحسبون أن العدوى إنما تكون في

الأمراض وحدها؟ لقد قرر خبير من خبراء الجمال اسمه البحري أن الجمال يعدي كما تعدي الأمراض، أفتحبون أن أقرأ عليكم تقريره العلمي ولو خرجت عن الموضوع؟ بل لقد خرجت فعلاً فسامحوني.

أما الشيخ أمجد وإني أنقل لكم ما كتبه عنه في حياته بإذنه قرأته عليه قبل نشره.

الشيخ أمجد كان بركة العصر، وإني لا أعرف في العلماء مثله. استفدت من صحبته فوائد كثيرة في خلقي وفي تفكيري.

عرفت الشيخ أول ما عرفته في دار العلوم (الكلية الشرعية في الأعظمية في بغداد) وكان أستاذاً فيها، وكنت أدرس فيها الأدب وأنام فيها، وذلك سنة ١٩٣٧ أو قريباً منها، ثم تركت العراق وعدت إلى الشام فلم أره إلا في المؤتمر.

ولقد عجبت من هذا النشاط الذي عراه في شيخوخته، في السن التي يخمد فيها عادة في نفوس أهله النشاط، وعهدي به أنه كان قاضياً منعزلاً، منفرداً بكتبه وتلاميذه وأولاده، فلما ترك العمل وبلغ السن التي يستريح فيها أمثاله انتفض انتفاضة فإذا هو يرجع شاباً: شاباً في جسده، وفي همته. وإذا هو ينتقل بقفزة واحدة من حياة بلغ فيها الغاية في العزلة إلى حياة بلغ فيها الغاية في الاختلاط، فكان هو الرئيس لجمعية إنقاذ فلسطين وجمعية الآداب الإسلامية وجمعية الأخوة الإسلامية (أي الإخوان المسلمين) وجمعية التربية الإسلامية، وإذا هو يصلح مدارس الأوقاف، ثم يفتح مدرسة ابتدائية وثانوية أهلية، وإذا هو يرحل إلى الهند أولاً وثانياً، ويرحل مرات ومرات إلى الشام والحجاز ومصر.

لما رأيته في المؤتمر وسلمت عليه وذكرته بنفسي، وقد درست معه في مدرسة واحدة سنة كاملة، قال لي: أنا لا أذكرك، فحسبت ذلك منه تكبراً وترفعاً واعتزازاً بالنفس وتجاهلاً للناس ثم علمت بعد، لما صحبتته، أنه كثير النسيان، وأنه صادق لا يعرف المداينة ولا المجاملة، فإذا كان لا يذكرني فيستحيل أن يقول لي إنه يذكرني، أو أن يجامل فيسكت إيهاماً وتضليلاً.

وقد ينسى من أمور الحياة، القريب منها والبعيد. أما مسائل العلم فهو يذكرها مهما طال المدي، ثم أخذت آلفه ثم أحببته، ثم حل من نفسي من التجلة ومن المحبة محلاً لم يحتله إلا القليل ممن لقيت من فضلاء الرجال.

لما لقيته في المؤتمر بهذه العمامة المشوشة دائماً، التي اتسخت جوانبها من كثرة العرق، واحمرت من صبغ الطربوش، ورأيت ثيابه التي كانت أقرب إلى أن توصف بالثرثارة، ورأيت شعره الذي لم يعرف الحلاقة من شهور، ظننته فقيراً، حتى لقد احتلت فجئته بقميص وبشاش للعمامة، وقدمت المقدمات ليقبلها مني، فلما رأى ذلك ضحك وقال:

- أفندي، ظننتني فقيراً؟ أنا أملك ١٦ ألف دونم.

والدونم ألف متر مربع، وعلمت بعد أن له ذلك كله، ولكنه لا يباليه ولا يفكر فيه. ورأيت لما كانت الرحلة قد تركه ومشى في سبيل الله، ولما فاض نهر دجلة وغرقت بغداد كنا في كراتشي، فحاولت مراراً أن أسأل عن مصير أرضه، هل غرقت مع ما غرق أم هي قد سلمت مع ما سلم، فكان يغضب ويقول:

- إني خرجت في سبيل الله فلا تشغل ذهني بها!.

وهذا هو الزاهد حقاً، الدنيا ملء يده، ولكن قلبه مملوء بمراقبة الله وذكر الآخرة. كان يأكل الطيبات وينزل في أكبر الفنادق، ويلبس - إن وجد - الغالي من الثياب، فإن لم يجد الغالي لبس الذي وجدته، لا يفرح بهذا الذي أتاه الله فرحاً يطغيه وينسيه دينه، ولا يأسى ولا يحزن إن استرد الله ما أعطى أسى يؤيسه ويقنطه من رحمة ربه.

هذا هو الزهد حقاً، زهد بعض الصحابة والتابعين وبعض الأئمة المتبوعين الذين كانوا يملكون الملايين: عثمان والزبير وابن عوف وأبو حنيفة والليث وابن المبارك، لا زهد الصوفي الذي منع نفسه الفالوذج أربعين سنة لأن نفسه تشتهيه، فعاقبها بمنعه عنها، وهو قادر عليه من الحلال، لأنه زعم أنه يخاف أن لا يؤدي شكره، فقال له الحسن البصري: «يا جاهل، وهل

تستطيع أن تؤدي شكر الماء البارد؟».

كان الشيخ أمجد كنزاً مخبوءاً فكشفه الصوفاء. كان كتاباً عظيماً مخطوطاً، لا يعرفه الناس فطبعه ونشره الصوفاء وعرف به الناس.

رأيت لا يبالي طعاماً، إن جئت به أكل من طيباته، وإن لم يجد صبر، فكان لا يقول لشيء منه: هذا طيب، ولا لشيء منه هذا رديء. بل يأكل كل ما يقدم إليه، وكنت أنا على الضد منه، قلما أستطيع أن أكل في هذه الرحلة ما أجد، وطعامي في بلدي ألوان قليلة معدودة، فإذا تبدلت، أو تبدلت طريقة طبخها. لم أكلها، لذلك كنت ألقى من السفر عنتاً، وهو والحمد لله صحيح الجسم، قوي المعدة، فلا يبالي باختلاف ألوانه، ولا تبدل مواعيده. وإن تركته بلا طعام لم يذكر الأكل.

ولقد حسبت ذلك تظاهراً منه، فأحببت مرة أن أختبره وهو لا يدري، لأعلم هل يتجاهل أم هو لا يدري حقيقة، فقلت لغلام الفندق (أي للنادل): الشيخ لا يريد اليوم طعاماً.

فلم يأت به بطعام، فلم ينتبه، ولم يسأل. فلما كان موعد العشاء رأيت يقبل على الأكل إقبال جائع، فسألته لماذا لم يتغد قال: لم يأتونا بطعام.

ولما شك في طعام فنادق الهند لأن الدار دار قوم لا يؤمنون بالله ولا بالإسلام، وليست دار أهل كتاب، بقي شهرين اثنين لا يذوق إلا الخبز والشاي، وهو يشكو القبض حتى مرض.

لباسه ما قد رأيتم وسمعتم والمال لا يباليه، والجاه لا يلتفت إليه، وطالما دخلنا على ملوك وأمراء، فكانوا يقدمونه ويمدحونه فلا يستهويه المدح، ولا يؤثر فيه التقدير، لأن همه كله الأمر الذي رحل من أجله وهو «قضية فلسطين».

وأمره في الوضوء والصلاة عجب، فهو موسوس في الطهارة لا في النجاسة. فإذا لم ير النجاسة عياناً لم يبالي. لذلك كان يصلي على الأرض، وفي ممر الطيارة، ولكن المصيبة فيما إذا تحقق النجاسة، هناك وسوسته وشكه.

ولطالما كنا على موعد مع ملك أو رئيس جمهورية أو رئيس وزراء، أو في مؤتمر صحافي فكان يخرج ونصف جبته مبتل يقطر منه الماء، فإذا لمته، قال: أفندي تنجست.

وإذا سمع داعي الله، ودخل وقت الصلاة، قام من فوره أينما كان وكيفما كان. فهو يترك المائدة الملوكية والحفلات الرسمية، رأيت هذا منه مراراً على مائدة الملك حسين في عمان، ومائدة رئيس وزراء باكستان، وفي حفلات رسمية عديدة، ويراه شيئاً عادياً، ولا يفكر في مخالفته للعرف، وإن كانت السنة أن يكمل طعامه ثم يقوم للصلاة. ولقد كان عبد الله بن عمر اتبع الناس لسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وكان يأكل مرة فسمع الأذان والإقامة واستمر يأكل، فلما سئل بين أن هذه هي السنة. ولعل للشيخ دليلاً على ما كان يفعله ويذهب إليه.

وأدركنا رمضان في سفر وفي مناطق استوائية. كنا فوق خط الاستواء تماماً. فلم يفطر رغم الحر والسفر، وإن كان الفطر أفضل.

وهو في الحقيقة رجلان مختلفان: إن جئت للعلم وجدت له ذهنًا نفاذاً عجبياً، يخترق كل معضلة علمية، لا بالرأي المقول، بل برأيه هو. ولقد بقيت معه أكثر من سبعة أشهر وكنت أجالسه كل يوم أربع ساعات أو خمساً على الأقل، يتكلم فيها على الغالب وحده. وهذا يزيد إن صح حسابي - على ألف ساعة، فما سمعت منه من الأحاديث المعادة أو الآراء المكررة إلا القليل، وربما ذكرت بالمناسبة بعضاً من آرائه في هذه الذكريات.

ولكنه إلى جانب ذلك لا رأي له في المشكلات اليومية، ولا يحاول أن يعالجها، وربما ترك الطريق الواضح المستقيم وسلك الطريق المعوج. لما كنا في كلكتا (وسياتي تفصيل الخبر) ترددنا بين الذهاب إلى دهلي (لا دلهي) أو الذهاب إلى بومباي قال: إنه لا نفع لنا من دهلي وذهبنا إلى بومباي، ثم نصح له من فيها بالعودة إلى دهلي فعدنا إليها، واضطررنا أن نقطع عرض الهند مرتين، وكانت أقرب إلينا لو قصدناها أولاً.

وأغرب من هذا أنه كان بين دهلي ولاهور مثل قاعدة المثلث المتساوي

الساقين ورأسه كراتشي، فسألته ونحن في دهلي: أنزور لاهور؟ قال: لا. فلما وصلنا كراتشي قال: إلى لاهور، فقلت: أنا لا أذهب إليها، لما كنت قريباً منها فعرضت عليك الذهاب أبيت، أفموكل أنا بفضاء الأرض أذرعه لنعود إليها الآن.

وهو ينقاد فيما لا يعرفه كالطفل. كنا نركب الطائرة فأقول له: شد الحزام فيشده، وأنسى أن أنبهه لحله إذا طارت الطائرة، فيبقى الساعتين والثلاث ساعات وهو مربوط، فيقول: أفندي هذا الحزام: فأفكه له.

ورعه الورع الحق، لا ورع التظاهر والرياء، كان ينفق عن سعة من أموال الجمعية في السفر والفنادق التي يراها ضرورية، ولكنه لا ينفق قرشاً لحلاقة رأسه مثلاً، لأن ذلك ليس من نفقات السفر، ولولا أنني أقسمت له مرة أن أدفعها مني ما حلق، لأنه لم يكن يحمل معه مالاً.

وكانت رحلتنا لقضية فلسطين، فإن لم يكن للقضية مصلحة من المقام في بلد لم يقيم فيه يوماً، ولم يمش بغير هذا المقصد فيه يوماً، ولم يمش بغير هذا المقصد متراً واحداً، حتى أن (تاج محل) أجمل بناء على ظهر هذه الأرض، لم يره ولم يمكنني من أن أراه. وقد كنا في دهلي وهو في أجرا وبيننا وبينه ساعتان بالسيارة، والناس يقصدونه من أقاصي الدنيا، لأنه لا مصلحة للقضية في رؤية تاج محل، وما جاء في كتابي هذا من وصفه الذي قال من كتب عن الكتاب أنه كان وصفاً رائعاً، إنما كتبه على السماع.

وإذا وقف للصلاة، نقى قلبه ونفى عنه كل ما يتصل بالدنيا ثم صرخ: «الله أكبر» فتحس أنها قبلة ألقى في وجه الشيطان.

وهو يكره المتفرنجين ويألف المشايخ، يجلس حيث يجلسون على الأرض، ويأكل معهم، وأنا لا أستطيع أن آلف هذا الأسلوب فأكل بأصابعي مثلاً، ولا أسلوب الإفرنج في اللوازم الرسمية، وكنت أتضايق في الحالين.

يكره تقليد الإفرنج لكنه يقرأ ما يصل إليه من كتبهم، ويروي النافع من أقوالهم، ويضيق صدره إن حدثته عنهم، أو قلت له ما يشتم منه راثحتهم، لا

سيما فيما لا يعرف من أمورهم.

وهو لا ينتظر تمام الجملة، ولا يرقب الشرح، بل هو يثور بي ويسكتني وأنا رجل أعرف له قدره، وأراعي سنه، ولكن حدة طبعي لا تحتل ذلك من أحد. فكان يقع بيني وبينه ما يكون بين الولد وأبيه، والتلميذ وأستاذه.

لما وصلنا بومباي تلقانا الرجل الكريم الذي من علينا وهو السيد عبد الله البسام فسألنا: «هل تنزلون في بنسيون؟».

فغضب الشيخ غضباً ما رأيته غضب مثله، وقال: «بنسيون؟ بنسيون؟ يحسب البنسيون ماخوراً أو مكاناً للفسوق، وحاولت أن أشرح له ما هو البنسيون فما تركني أتكلم. وأما ذهوله ونسيانه فعجب من العجب.

قال لي مرة ونحن في بومباي إذهب بنا إلى القنصلية السعودية ثم إلى العراقية فذهبنا فكانت القنصلية العراقية على طريقنا، فقلت له: ندخل هذه أولاً؟ قال: باسم الله. فدخلنا وجلسنا جلسة طويلة، وتحدثنا عن العراق وأهله. ولما خرجنا قال هيا بنا إلى العراقية. قلت: كنا فيها. فغضب وقال: ليش ما تقولي، أنا أحسبها السعودية. قلت أما رأيت العلم؟ وصورة فيصل بن غازي؟ أما حدثهم عن بغداد؟ ولكنه إلى جنب هذا يذكر من مسائل العلم ما قرأه من ستين سنة، وهو فقيه حنفي متمكن، له مشاركة في كل علم، كان محامياً، ثم صار قاضياً، ثم أمضى عشرين سنة رئيساً لمحكمة التمييز (النقض)، وأستاذاً في كلية الحقوق، ومدرساً في مدرسة قديمة من مدارس الأوقاف، هي المدرسة السليمانية، فلما منع القانون الجمع بين الوظائف وخير بينها اختار التدريس في المدرسة الوقفية الصغيرة لأنها مدرسة أبيه، ولأن العمل فيها لله وللدار الآخرة، وترك رئاسة التمييز.

وكان الشاعر الكافر الزهاوي عمه، ولكنه قاطعه وهجره وأبغضه في الله، ولم يخرج في جنازته لما مات.

هذا هو الرجل الذي كان لي شرف صحبته فكسبت منه علماً وديناً وخلقاً، رحمة الله عليه وأجزل ثوابه.

أَنُورَ الْعَطَّارِ شَاعِرِ الْحُبِّ وَالْأَلَمِ وَالطَّبِيعَةِ

هذه حلقة مفردة ليست منظومة في العقد، بل إنها الفصل الذي يأتي بين فصول الرواية (انتراكت) فسأعحوني إن أخللت بسردها، وأعدكم أنني سأعود إليها.

أخذت جريدة «الشرق الأوسط» يوم الأربعاء ١٤٠٥/٦/١، فوجدت اثنين من بلدي، هفا إليهما قلبي، وأضرما - وما نخذت - لواعج الشوق إليه في صدري، وضمخا بالعطر كل ما حولي، فملأ الطيب مجلسي، وكيف لا، وهما عطار يكتب عنه عطري.

فكأنني انتقلت معهما إلى الغوطة في أذار، وقد كللت هام الأشجار فيها الأزهار، وغنت على أفنانها الأطيّار، وأين مني تلك الديار؟ أين مني الغوطة - يا أسفي على الغوطة -. لقد قطعوا شجرها، وبددوا زهرها وثمرها، وأقاموا عليها مقابر كبيرة للأحياء من البشر، لا تختلف عن القبور إلا بأنها طبقات فوق طبقات، وأن لها منافذ يدخل منها الضياء كما تدخل منها شياطين الإثم، إذ تكشف سر الجار للجار، حتى يراه في مخدعه مع أهله!.

فيا أيها الأستاذ عبد الغني العطري لك الشكر.

لقد أحييت في نفسي طرفاً من ماضي الذي حسبته مات، حين أثبتت على أنور، ولا ترجو على الثناء جزاء ولا شكراً، إنما هو الوفاء، وما أقل في الناس الأوفياء.

لقد صحبت في طريق الدراسة الطويل، ألوفاً من الطلاب، رافقتهم ثم فارقتهم، مشينا معاً في طريق واحد ثم انشعبت بنا الطرق، واشتبكت المسالك، فتفرق الشمل الجميع^(١)، وانقضت صعبة المدرسة، أجمل صعبة وأنقاها، وأثبتها على نوب الزمان وأبقاها.

أيا حبذا صعبة المكتب وأحب بأيامه أحب

إنها الصداقة المبرأة من شوائب المطامع والمنافع، البعيدة عن المجاملة والمخادعة والنفاق. كنا جميعاً على مقاعد مشابهة، فرفعت الحياة ناساً منا فأعلت منازلهم، وخفضت ناساً، وتبدلت المقاييس، واضطربت الموازين، فتقدم من كان متأخراً في دروسه، وتأخر من كان متقدماً.

وكم منجب في تلقي الدروس تلقي الحياة فلم ينجب
وصار إلى الفاقة ابن الغني ولاقى الغني ولد المترب
وقد ذهب الممتلي صخرة وصح السقيم فلم يذهب

لم يبق معي على الطريق من هؤلاء الألوفاً إلا إثنان، أنور العطار رحمه الله وسعيد الأفغاني سلمه الله.

وغاب الرفاق كأن لم يكن بهم لك عهد ولم يصحب
إلى أن فنوا ثلة ثلة فناء السراب على السبب

يقول الأستاذ عبد الغني العطري أن أنور العطار ظلم نفسه بعزله وابتعاده عمن في أيديهم مفاتيح الشهرة، يفتحون أبوابها لمن يروونه معهم، يغشى مجالسهم ويغلقونها في وجه من ينأى عنهم.

ولكن هل ترى يا أيها الأستاذ العطري أن هذا من صنع أنور؟ هل طبعي أنا مثلاً من صناعي؟ إن الله كما يخلق الرجل قصيراً أو طويلاً، ولا يد له في طوله وقصره، يجعله مقبلاً على المخالطة أو معرضاً عنها.

وإن كانت عزلة أنور ظلماً منه لنفسه، فماذا تقول عني أنا؟ لقد كان هو

(١) (أي المجموع).

الاجتماعي بيننا (أنا وهو) وكنت أنا المتوحد المتفرد. كان ينكر عليّ عزلي، ويدفعني إلى غشيان مجالس الأدب التي يغشاها، ولقاء أهله الذين يلقاها، فكنت أستجيب له حيناً، وأتأبى سائر الأحيان.

لقد كتبت مقدمة ديوان أنور «ظلال الأيام» من نحو أربعين سنة (سنة ١٣٦٧) ثم قطع الدهر ما بيني وبينه فابتعدنا قليلاً، كان هو في الشام وكنت في الرياض فلما جاء الرياض، كنت في مكة، ثم زرت دمشق إحدى زياراتي القليلة أيام إقامتي هنا في المملكة، فقابلته في بيته وأخذت لنا صورة، ما كنت أدري يومئذ أنها المقابلة الأخيرة، وأن هذه الصورة ستبقى ذكرية عزيزة لأخ فقدته.

لما كان في مستشفى المواساة في مرض موته كنت أنا إلى جواره، ما يفصلني عنه إلا بضع غرف، وكنت مقيداً إلى سريرى، أجرى لي الصديق الدكتور مظهر المهاني عملية ما استطعت بعدها أن أذهب إليه فأراه، ولكن زوجتي زارت زوجته، فخبرتني أنه صار جليداً على عظم، وأنه ليس أنور الذي عرفناه بل هو طيف له على صورته وعلى شكله.

ولما توفاه الله كنت قد خرجت من المستشفى، فمشيت في الجنازة وأنا والله في دنيا غير دنيا الناس، أصحابهم بجسدي وفكري ونفسي مع أنور في أيامنا الخوالي، ثم لما انتهى الدفن، ووقف أهله للتعزية تركتهم وجست خلال المقابر، فقعدت بينها حيث لا يراني أحد، وما معي إلا قبور الموتى من حولي والماضي الذي حسبته مات في خيالي، وعلى يميني من بعيد قبر أبي وأمي، وأمامي من بعيد الحفرة التي ثوي فيها جسد أنور، وكر شريط الذكريات فلم أعد أعرف أين أنا. لا أفكر في المكان الذي أقعد فيه، ولا في الزمان الذي أعيش فيه، لأن صداقتنا ولدت ذات يوم في هذه المقبرة.

هل تحبون أن أكشف لكم طرف الستار عن هذه القصة الطويلة، التي عشتها معه وعاشها معي؟.

لا بد إذن أن أعيد عليكم بعض ما كتبت في مقدمة الديوان، إنه فلم طويل، فلم حافل بكل جميل ونبيل، يمر بك في لحظات وقد تصرمت في تأليفه

وإخراجه خمسون سنة. فلم كنا نحن أبطاله، وكنا نحن ممثليه، فصرنا نرى فصوله تعرض علينا من بعيد.

الفصل الأول من هذا الفلم في مكتب عنبر في أعقاب الحرب العالمية الأولى (سنة ١٩٢٣). عندما أبصرت أنور العطار أول مرة، أبصرت فيه تلميذاً رقيق العود، دقيق الملامح، أنيق المظهر، من غير أن يبدو عليه أثر الغنى. شارد النظرات، يمر في ظلال الجدران، خفيف الوطاء حالم الخطى، كأنه طيف يمر على خيال نائم، يعتزل التلاميذ لا يثب وثبهم، ولا يلعب لعبهم، فسألت عنه من يعرفه فقال: هذا تلميذ شاعر اسمه أنور العطار.

وما كنت أؤمن يومئذ بغير شعراء الجاهلية والشعراء الإسلاميين، ولا أرضى لنفسي أن أقرأ شعر المتنبي، ولا يرضى لي ذلك مشايخي، لئلا تفسد. كما قالوا - ملكتي. ولم أسمع باسم شوقي، فما لي ولهذا الشاعر الذي اسمه أنور العطار؟ لذلك ما طلبت صحبته، ولا ظننت أنه سيكون بيني وبينه اتصال، حتى كانت تلك المصادفة المسعدة التي كان لها في حياتي أنا، وفي حياته هو، أبلغ الأثر.

كانت هذه المصادفة على باب المدرسة (البادرائية) في ليلة من ليالي رمضان، كنت داخلاً إليها، فوجدت أنور خارجاً منها، فوقف يحيني ووقفت أحياه، وكلمني وكلمته، واتصل الحديث نحن قيام تحت مصباح الشارع، حتى جاء ذكر شوقي فأنشدني قصيدة له، قرأها بصوت عذب حالم حنون، فأحسست أنه كان يمس بكل كلمة من القصيدة حبة القلب مني، فأحببت شوقي وأحببته. وأنت تلقى المرء أول مرة فتحس بأنك تحبه أو أنك تكرهه، لا تدري لحبك ولا لكرهك سبباً.

سر ركبه الله في نفس الإنسان. وفهمت منه أنه يسكن في حارة تجاور الحارة التي أسكن فيها، فاصطحبنا، وذكر موت والدي في تلك الأيام فحدثني عن موت والده وهو صغير. وجعلنا طريقنا على مقبرة الدحداح، والطريق منها إلى حارتنا أقصر، وهنالك على قبر أبيه وعلى قبر أبي، ولدت هذه الصداقة التي أثمرت شعراً ونشراً، وحباً وإخلاصاً، وكانت من أخلص الصداقات، وإن لم

تخل من منغصات، شأن الناس في هذه الحياة.

وهناك في مدينة الأموات ولدت هذه المودة التي لم يستطع أن يعدو عليها الموت، لأنها محصنة منه، ولأن الأدب أكسبها الخلود.

وكرت فصول الفلم تتوالى، فرأيتني قد غدوت صديقه وغدا صديقي، يبثني شكاته وأبثه شكاتي، ويجد في حياتي مشابه من حياته، وأجد في حياته مشابه من حياتي، ألف بيننا اليتيم، وأنا كنا مستورين على حالة هي فوق الفقر ودون الغنى.. حتى كأني هو، وكأنه أنا.

وصار يسمعي شعره فأجد بواكير شاعر متمكن، لا محاولات طالب مبتدئ، وأجد في هذه البواكير قوة في التعبير، وجدة في التفكير، وأبياتاً سائرة وصوراً رائعة، يرسلها تترى (أي متتابعة) يستقيها من معين ثابت لا ينضب، وكنت بطول ما نظرت في كتب الأدب، وألفت من آثار البلغاء، أستطيع - على صغري - أن أميز الذهب الخالص من الكلام، من النحاس المطلي بماء الذهب.

واستقبلت فيه العربية شاعراً جديداً ملهماً، وفتح له ولإخوانه الثلاثة جميل سلطان، وزكي المحاسني، وأبو سلمى عبد الكريم الكرمي، وكلهم رفاقنا في المدرسة، فتح لهم أستاذنا محمد كرد علي أبواب المجمع، فأقام لهم حفلة تكريمية أنشد فيها أنور العطار قصيدته «الشاعر» التي رويتها من قبل، والتي أشار إليها وأثنى عليها الأستاذ العمري.

وكانت هذه الحفلة سنة ١٣٤٦ هـ ونشرت قصيدته في «الحديقة» التي كان يصدرها خالي محب الدين الخطيب في تلك السنة.

وشعر أنور في تلك الفترة آهات أبدعها الفن صوراً، ودموع صاغها البيان شعراً، ومقطعات حلوة ما أدري ما الذي زهد الشاعر فيها فلم يثبت منها في ديوانه «ظلال الأيام» إلا مقطوعة «الحمامة».

ورأيت فصول الفلم تتوالى، أبصر فيها كل دقيق وجليل من حياتي وحياة أخي في الصغر وفي الكبر، ورفيقي في السفر وفي الحضر، وأنيسي في المسرة وفي الكدر، أنور، رحمة الله على روح أنور.

رأيت أيامنا في المدرسة ونحن تلاميذ نعيش من الأدب في دنيا الخيال، إذ أعجزتنا دنيا الواقع أن نجد فيها ما نصبو إليه ونتمناه، لا نصدق متى ينقضي النهار حتى نفر إلى كتب الأدب، لنقرأ كل بارع من القول، ونتدارس كل رائع من البيان.

ورأيتنا وقد فرقت الأيام بيننا قليلاً، فاشتغلت أنا بالصحافة، وغامرت في السياسة، وآثر أنور التعليم فكان مدير المدرسة الأولية في منين^(١)، في هذه القرية النائمة في حجر القلمون الأدنى، ترى مواكب الأحلام بأجل «عين» وأشدّها سحراً وأكثرها فتوناً: عين منين. من لم ير عين منين، ما عرف سحر العيون، ولا رأى جمال الينابيع، ولا رشف راح الجمال على مائدة الكون.. فكنت أزوره فأقضي ليلة أو ليلتين في جنة قد جمعت فيها النعم، أسكر سكرين: سكر الجمال، وسكر البيان، وأخضع فيها لسحرين: سحر الطبيعة وسحر الشعر. وأجمع فيها الماضي البهي ذكرى حلوة، والآتي الشهى أملاً مرجى في حاضر ضاع في نشوة اللذة، حتى لم يبق لنا منه حاضر نحسه ونذكره. نقضي الأصباح نستمع إلى أشعار السواقي المتحدرة من الينبوع وأشعار أنور، ونقطع الأماسي عند الصخور التي أفضنا عليها من الحياة من قلوبنا، فصارت تحنو علينا، وتوليننا الحب. وأرقنا عليها البيان، فأمست تحدثنا: تتلو علينا أحاديث الغابرين، وتقص قصص الأفلام، من غسان^(٢) أصحاب المجد المؤثل، فنحس كأن قد عاد الماضي، ورجعت «القصور البلق» عامرة، وبعث المجد وعاش الحب، حتى لكأننا نسمع همس العشاق، وآهات نشواتهم، ووسوسة قبلاتهم، ونرى خيالات العناق من وراء الستار.

أيام سعدنا بها، وما سعدنا بالصخر ولا بالماء، ولكن بأحلام الشباب، رحمة الله على تلك الأيام.

(١) منين: إحدى القرى القريبة من دمشق.

(٢) غسان: الذي ينسب إليه الغسانيون والغساسنة ليس رجلاً ولكنه نبع ماء نزلوا عليه وموضعه في جبل الدروز عند قرية سلطان باشا الأطرش.

ورأيتنا وقد صرت أنا معلماً في الجبل من دمشق، في المهاجرين، وصار هو معلماً في السفح في الصالحية. فكنا نرتقب المساء ارتقاباً، فإذا حل انحدرت أنا من هنا وانحدر هو من هناك، حتى نلتقي عند العفيف^(٣) نفرح بهذا اللقاء، فرح حبيين التقيا بعد طول فراق.

ورأيت أيام العراق زهرة أيامنا، أنا وأنور، وزينتها أيام بغداد. (وقد حدثتكم عني وعنه وعن بغداد) كانت أيام بغداد أجدى الأيام على أنور، ففيها اختزن في نفسه أجمل الصور، وفيها نظم أروع القصائد، وفيها ابتداء في حياة الشاعر عهد جديد، هو عهد القومية وشعر الحماسة الوطنية، فازدادت بذلك هذه القيثارة وترّاً جديداً، خرجت منه أطيب النغمات.

ماذا أصف؟ وعم أتكلم؟ وكيف أستطيع أن أجمع في كلمات دنيا من العواطف، وعالمًا من الذكريات، وآلاف مؤلفة من المشاعر كانت أثبت من الزمان، لأنها بقيت وقد ذهب الزمان، وكانت أجمل من العمر لأنها هي جمال العمر.

رأيت هذا كله، وما هذا إلا تلخيص لحياة أنور، الشاعر الذي عاش حياته كلها كما يعيش الشعراء الخلد الملهمون، شعراء القلب والروح واللسان، لا شعراء الألفاظ والبيان، الشاعر في قلبه المتفتح أبداً للجمال، المترع بالخير الممتلئ بالحب. وفي لسانه الذي يفيض أبداً بالجمال، وينفث السحر الحلال.

وفي هذا التلخيص تحليل لشاعرية أنور، فإذا أخذتم عليه أنه كان حليف الحزن، صديق الأسى، قد وقف شعره على تقديس الألم العبقرى، ولا شيء يبعث الأدب العبقرى كالألم العبقرى كما قال الفريد دي موسى في أبياته المشهورات.

لقد بكى الأحلام الضائعة كما بكى الأوراق المتناثرة في «الخريف» وخلد مظاهر الأسى في النفس وفي الطبيعة. إذا أخذتم عليه ذلك فاعلموا أنه لم يكن يستطيع غيره، وأن الشاعر لا يطبع نفسه كما يشتهي، ولكن يطبعه الله بطابع

(٣) العفيف: حي من أحياء دمشق يقع في أدنى سفح جبل قاسيون.

البيئة والزمان، ويكون مشاعره في طفولته، قبل أن يشعر هو ليكون مشاعره كما يريد، ولو استطاع امرؤ أن يصغر فمه أو يجمل أنفه لاستطاع أن يبدل قلبه ويحول عواطفه.

لقد نشأ أنور مثلما نشأت أنا، وفتح عينيه على الدنيا والحرب العالمية الأولى قائمة، ودمشق في أشد أيامها، ومظاهر البؤس والألم في كل مكان: ولد في السنة التي ولدت أنا فيها سنة ١٣٢٧ هـ وقد كبره الأستاذ مؤلف الأعلام، وصغره الأستاذ العطري، وميلاده الحق هو ما قلته.

فلا تلوموا أنور إن كان الحزن طابع شعره، وكان الفرح فيه مثل الفجر الأول، لا يكاد يبدو بياضه في الأفق حتى تبتلعه بقايا الليل، فهذا هو السبب.

ولا تلوموه إن تغزل، فتكلم عن الرؤى والأحلام، وترك الحقائق وعلا إلى سماء الخيال ولم ينزل إلى أرض الواقع، وأنه عمم وجمجم، فلم يكشف ولم يصرح، فإن البيئة التقية التي نشأ فيها أنور لم تكن ترى في الحب إلا ذنباً، على صاحبه أن يستغفر الله منه. فإذا كان في شعراء اليوم من قصر شعره على مخدع الزوجية بغير زواج شرعي، وعلى ما يكون بين المرأة والرجل بغير إذن من الله، وكان شاعر الفسوق والعصيان^(١)، فإن شعر أنور كشعر نصيب الشاعر الذي سمي قومه «ليلي» ليتغزل بها.

إن أنور لم يتصل في حياته بفتاة على نحو ما يفعل الشباب، وإنه كان أعف وأشرف من أن يفكر في هذا أو أن يحاوله. وأنا أقول ما أقول عن معرفة به: أعرف عنه أكثر مما يعرف عنه ولده الذي انبثق من صلبه.

ولا تأخذوا على أنور أنه حبس نفسه في هذه الدائرة الضيقة، وقصر عليها شعره، ولم يخرج إلى الفضاء الأرحب، ولم يعرف في الدنيا الواسعة التي يعيش فيها أكثر الشعراء والناس. فإن أنور أمضى صباه كما أمضيت صباي في عالم ضيق، كانت حدوده تلك المسالك الملتوية الموصلة إلى مكتب عنبر، وتلك الساقية الصغيرة التي كتبت عنها في مجلة «الرسالة» من اثنتين وخمسين سنة،

(١) يأخذها جزافاً، بلا وزن ولا (قبان).

فارجعوا إليها لتقرأوها، وذلك الطريق الموحد الذي كان ينتهي عنده العمران،
ويبدأ منه عالم الظلام والفرع واللصوص، والذي كان اسمه قفا الدور وكان
نهاية البلد، فصار الآن شارع بغداد، وصار في وسط البلد.

إن أنور يخشى أن يفارق عالمه الشعري الذي أحبه، أو يتجاوز حدوده،
كما كان يخشى من قبل، وأخشى أنا، أن نتجاوز قفا الدور أو نتخطى مكتب
عنبر.

ولكن عالم أنور الشعري واسع على ضيقه، لأنه عالم القلب: إن لم يمتد
على وجه الأرض فإنه يمتد في العلاء صعباً، حتى ليتصل شعره أحياناً بالدين،
والإيمان ذروة السمو في هذه الدنيا وقد تضيق على المرء الأرض كلها إن اقتصر
عليها، ولا يضيق عليه متر واحد إن سما حتى اتصل بالسما.

عاش أنور في عهد جد ويقظة، وإقبال على العلم والعمل، وحفظ
عشرات القصائد من جياش أشعار العرب، فجاء أسلوبه كالماء الصافي: فيه
عذوبة ولين، وفيه إن تدفق قوة ومضاء، وكان في شعره أثر الجد ومؤهلات
الخلود، لا كأشعار أصحاب المناسبات، وطالبي إعجاب العوام. وكان نسجه
كالحرير المتين المصوف المنقوش النقش البارز، لا كالنسج الرخيص الذي يتمزق
من الشد، وتذهب ألوانه من رؤية الشمس.

ما مشى أنور على الطريق الذي فتحه له من قبله من الشعراء، بل على
طريق شقه هو لمن بعده من الشعراء. كان أنور إمام جماعة الشباب، ولم يكن
مؤتماً تابعاً، ولولا نفس من شعر شوقي في مثل قصيدته «ليل الحزين» من
بواكيره، وروح من الأدب الفرنسي في بعضها، لقلت بأن أنور لم يقلد في
أسلوبه أحداً أبداً. وهل لشاعر مثل الذي لأنور في وصف الطبيعة، وفي وصف
البلدان، وفي وصف الرؤى والأحلام، حتى يقلده أنور؟.

* * *

لقد قلت يومئذ في مقدمة الديوان، إنه ديوان الوفاء للعربية: نخل
مفرداتها فاختر أطيبها، وعرض أساليبها فاصطفى أحلاها. وديوان الوفاء

لأقطارها: جرى بردى منذ الأزل، وقام لبنان، فهل قال شاعر في بردى مثل الذي قال أنور؟ هل نظم في لبنان مثل ما نظم؟ هل يعرف القارىء في الشعر الحديث قصيدة في وصف الطبيعة أعظم من «لبنان» التي اشتمل عليها هذا الديوان؟ .

أنا لا أبالغ ولا أغالي، وهذا الشعر الحديث بين أيدي الناس، فمن عرف أعظم منها فليقل .

ولكن «المعاصرة» حرمان، وأزهد الناس بالعالم أهله وجيرانه، وستمحصى السنون هذا الشعر وهذا النثر، الذي يلقي بين أيدي الناس، فتميز الجواهر من الزجاج، والذهب من النحاس، وهنالك بعد أن يذهب الرجال، وتنقطع الصداقات والعداوات ولا ينفع إلا الأدب الذي يستحق الخلود، يومئذ تعرف قيمة قصيدة «لبنان» وقصيدة «بردى»، وهنالك بعد أن يعدو النسيان على أسماء كثيرة تملأ اليوم الأسماع، وتشغل الناس، يحتل اسم أنور العطار مكانه مع أسماء الشعراء الخالدين . .

هذا كلام قلته أكثر من أربعين سنة فإن لم يأت ذلك اليوم فلا بد أنه آت .

كنا نعد الشعراء الكبار في دمشق أربعة هم: خير الدين الزركلي ومحمد البزم، وخليل مردم بك وشفيق جبري، وكان أصحاب الصحف يبدلون المقاييس فيقدمون من يرونه هم أحق بالتقدير، فيعرف الناس اسمه، ويقرؤون شعره، ويهملون غيره، فلما هدأت هذه الضجة وانطفأت هذه القناديل، وسطعت شمس الحقيقة، احتل كل مكانه الذي يستحقه . وكان شعراء الشباب من رفاقنا أربعة هم الذين كرمهم الأستاذ كرد علي رحمة الله عليه وعليهم، خليفة الشيخ طاهر الجزائري في تشجيع الناشئين، والأخذ بأيدي المبتدئين . وكان أنور العطار أشعرهم، إن لم يكن أوسعهم أفقاً، وأكثرهم تنوعاً، فهو أجودهم ديباجة، وأحلاهم أسلوباً، وأحسب أنه سيكون أبقاهم ذكراً .

وبعد، فالشكر للأستاذ نجدة فتحي صفوة الذي أعاد لنا ذكرى أنور

العطار وما نسيناه، والشكر للأستاذ عبد الغني العطري الذي دفعني إلى نشر هذا الكلام.

إن الساعة إنما تسير عقاربها، وتحركها حركتها هذه الملوّبات^(١) أي اللوالب، وكان عندنا جماعة هم ملوّبات (أي لوالب) الحركة الأدبية في دمشق يدركون خامدها، ويسيلون جامدها، ويبعثون اليقظة فيها، وكان منهم الأستاذ عبد الغني العطري.

أعتذر للقراء إن قطعت سلسلة الكلام عن رحلة الشرق وتكلمت عن أنور العطار، رحمه الله، وأعدهم أنني سأعود في الحلقة المقبلة من السلسلة.

(١) الملوّب: على وزن مكرم وهو ما يسميه الناس باللوّلب.

الفهرس

٥	بين يدي الطبعة الثامنة
٦	بين يدي الطبعة السابعة
١٣	- سيد رجال التاريخ (١)
٢١	- سيد رجال التاريخ (٢)
٣١	- معلمة الرجال
٣٧	- سيدة جليلة من سيدات المجتمع الإسلامي الأول
٤٥	- أعظم قوام التاريخ القديم
٥٣	- قاهر كسرى
٦١	- مأساة عالم
٦٩	- العالم العامل
٧٧	- الخليفة الكامل
٩٥	- فاتح المشرق
١٠٣	- من ورثة الأنبياء
١١١	- الإمام الأعظم
١١٧	- أكبر ملوك الأرض
١٢٥	- جمع الدين والدنيا
١٣٣	- ناصر السنة
١٣٩	- أمير المؤمنين في الحديث
١٤٧	- العالم النبيل
١٥٥	- الفقيه الأميرال

١٦٥	- شاعر يرثي نفسه
١٧٣	- سيد شعراء الحب العذري
١٨١	- السلطان الشهيد
١٩١	- فاتح القدس
١٩٩	- الظاهر بيبرس
٢٠٥	- القاضي المتأنق
٢١١	- خطيب الزهراء
٢١٧	- حجة الإسلام
٢٢٧	- بقية الخلفاء الراشدين
٢٣٩	- الملك الصالح
٢٤٥	- شيخ من دمشق
٢٥٥	- سلطنة الهند
٢٦١	- مفتي السلطان سليم
٢٦٧	- الاحتفال بالمولد
٢٧٥	- باني مراكش
٢٨٣	- شارح القاموس
٢٩١	- موسى بن نصير
٣٠٣	- الصقر الأموي
٣٠٩	- قراقوش المفترى عليه
٣١٣	- الوزير الشاعر
٣١٧	- عِبْرَة
٣٢٥	- البرامكة
٣٥٣	- معن بن زائدة
٣٥٩	- أبو دلالة
٣٦٧	- توضيح
٣٦٩	- عائشة التيمورية
٣٧٥	- الشيخ طاهر الجزائري

٣٨١		- الشيخ بدر الدين الحسني
٣٨٧		- الشيخ علي الدقر
٣٩٧		- الشيخ محمود ياسين
٤٠١		- الشيخ عزيز الخاني
٤٠٥		- الشيخ كمال الخطيب
٤٠٩		- الشيخ كامل القصاب - والشيخ بهجة البيطار
٤٢١		- الشيخ الكافي
٤٣٣		- الشيخ عبد المحسن الأسطواني
٤٤٥		- حسن الحكيم القوي الأمين
٤٥٣		- مع بعض مشايخي
٤٦٥		- الشيخ أمجد الزهاوي
٤٧٥		- أنور العطار شاعر الحب والألم والطبيعة